

أم الزينات تحت ظلال الخروب

محمد الاسعد

رواية

دارت بنا في النفي دارُ
شردتْ مع الأفلاكِ يكشفها
ويحجبها الغبارُ
شجرٌ هنا
حجرٌ هناك
ونحن حول الدارِ أولادٌ صغارُ
يتعثرّون بحبهم
ويلاحقون فراشةً
في الروح أثملها الدوارُ
في الصبحِ يرتجفون من
بردٍ وفي الظلماءِ يحضنهم إسارُ
أرأيتِ أيتها الحبيبةُ كيف ينخطفُ النهارُ؟

خالد علي مصطفى، عين غزال، فلسطين

إفتتاحية

اقتربي ياجدتي، إجلسي بجواري، ودعينا نكن في غاية الشفافية. حدثيني عن هذه الخطوط التي غضّنتْ جلدك الزيتوني، وتركت وراءها آثار ألف حسرةٍ لانهاية لها، عن العالم المفقود الذي لم تبزغ فيه سوى الألفة المواسية على حافة الشمس الشرقية باتجاه أراضي الرسول، ومالت إلى الغروب باتجاه أراضي اولئك الذين قيل لك أنهم الصليبيون، عن تلك الأيام التي كان فيها السرّيس وأشجارُ الخروب أصدقاءك، وكانت فيها أحداثُ حياتك تسمى بأسماء الحوادث المفعمة بالحياة، عن المواسم التي علّمتها بأيام الحصاد، وأيامِ الحصاد التي علّمتِ بها ميلاد أطفالك. وماذا عن المشاعر التي استبدت بكِ حين تجولتِ في بساتينك وكرومك؟

حدثيني عن ذلك الزمن الذي سُحب من تحت قدميك ياجدتي، وتركك طافية فوق هاوية الخسارة الأبدية. ماذا عن ذلك اليوم الأسود الذي أغتصب فيه العام كله، العالم الذي وجدتِ نفسك فيه تطردين خارج وجودكِ؟

حدثيني ياجدتي، هل كانت أدخنة اللهب التي التهمت قريتنا في الأعالي هي علامة اليوم الأسود إلى الأبد؟ أم هي اليقظة في عتمة الليل على أصوات الرصاص التي رجّت السماء، وانهالتْ على الطرق الأليفة التي ابتلعتها الظلمة الغريبة المشؤومة فجأة، الليل الذي وقع فيه العالم كله فريسة للضباع، الليل الذي كان فيه صراخُ الأطفال العطاش يُطفأ بقطرات الندى. الليل نفسه الذي دفعتكِ فيه غريزة الأمومة، وأنا على ثقة من هذا، على تلك الطرقات من قرية إلى قرية، إلى أن وجدتِ نفسك تنامين تحت أشجار لوز أخرى، غطاؤكِ السماء وحدها.

دعيني ألمس جلدكِ الذي سفعته الشمس ياجدتي، وأنظر في هاتين العينين البنيتين اللتين عاشتا نصف قرن في عالم مجهول، محكوم عليهن بالنفي تحت شمس الصحراء الشرقية القاسية. ماذا عن تلك المعاناة الصامتة، وكرامتك تأبى أن تسمح لدموع اللاجئة أن تتساقط؟ هل وجدتِ حلاوة التمر الذي جئتِ تلتقطينه تحت أشجار النخيل كسبا للعيش ياجدتي؟ أم أن الحلاوة تخلفتْ في أرض الوطن أيضاً، مع كل ألوان الخضار البهيج التي أحاطت بنا؟ وماذا عن أطفالكِ الذين ما أن فتحوا عيونهم على حكايات مشهد تتخلله الجبال والسناسل الحجرية، حتى وجدوا أنفسهم في أرض تمتد رمالها بلا نهاية؟.

آنذاك، هل عدتِ بالنظر إلى الوراء فقط، إلى اولئك الناس، أناس أراضي الصليبيين غير المألوفين، اولئك الذين اعتقدتِ أنهم وصلوا إلى أطراف قريتنا ليعيشوا بجوارنا؟ ولم يتضح كل شيء إلا حين رنّتْ في أذنيك أصواتُ تلك الكلمات غير المألوفة، كاديما..كاديما؟. وماذا عن اولئك الناس الذين حدثتِ أطفالكِ عنهم، يهود بلادنا ياجدتي، اولئك الذين حذروكِ من اليهود الغرباء الذين لم يصلوا لمجرد أن يعيشوا معنا، اولئك الذي صادفتهم في الحقول ياجدتي، اولئك الذين تحدثتِ معهم، اولئك الذين تشبه غربتهم عن وعورة أرض وطننا شبها تاما غربتنا في مابعد وسط صحراء الشرق والشمس التي لاتغرب أبدا.

وماذا عن حفيدتكِ؟ ماذا عن مطلع روايتي التي أحملها معي، وأجدني ما أزال بعد نصف قرن أعود إلى زيارة بدايتها، بداية الحلم الذي سيصبح خاويا من كل معنى ومن كل زمن. كيف يمكنني حل سرّ اليوم الأسود، والظلم المحرق الذي يعذّب أعماق روحي؟ ظلم يمكنني تحديده وحسابه ياجدتي، لأنني فتحتُ عينيّ على المدينة والإسمنت، على الكتبِ والكلماتِ التي لاتستطيعين قراءتها، على كتبٍ وكلماتٍ لم تكن بحاجة إلى أن تُقرأ في وطن الصخور وأشجار الزيتون، وطن الألواح المطمورة

واللفائف الخفية التي ظهرت إلى الوجود على حافة عالمكِ. كيف يمكنني تفسير ضياعنا ياجدتي لأناس ينكرون عليك وجودكِ؛ أن أتلفظ، أن أجادل، وكم سيطفيء كل هذا من حزنكِ على أية حال؟.
اغفري لي ياجدتي إذا تحدثتُ بلغةٍ أخرى وأنا أتخللُ شعركِ الأبيض بأصابعي، لأنني فتحتُ عينيّ في ظل عالمكِ، عالم أتنكر له، وأتوق إلى تلك الأماكن التي وصفتها، عالمةً أن صخور بيتكِ المتناثرة هي كل ما تبقى من قريتنا. لقد دمّروا حتى مقبرتنا ياجدتي، دمروا مكان الراحة الأخيرة لأمواتنا، لأجدادنا. وأنا مازلت هنا، أتنفس وأشعر بلا جذور مثل ريشة طافية، محرومة من وطن ومن أسلاف، بينما أنتِ ياجدتي تمضين أيامكِ الأخيرة منادية على ذلك العالم المفقود، يستبدّ بك الإرتباكُ ذاته الذي طغى عليكِ في اليوم الأسود، قبل أن يسجّوكِ في نومتكِ الأخيرة، في مكان ما تحت صحراء رمل الشمس الشرقية القاسية.

أناهيد

الصـــــــــورة

تعدّدت الحكاياتُ والطرقُ، ظهرتْ وجوهٌ واختفت وجوهٌ، تعددت النوافذُ، تغيرت الإيقاعاتُ والأغاني، ولكن الندى ظلّ يلتمع ُبين الكلمات ِوفوق أوراق ِالشجر وعلى أهداب ِالعابرين والهاربين وعلى امتدادِ النظر، وظل بيتنا هناك في أم الزيناتِ يصغي للعتمة بين أوراق الخروب وتناوح الريح بين الصيافير العالية.
حين تسأل حكايتي الجديدة نفسها: ما أنا؟ ستجيب بعد قليل:
"أنا حكاية ندى أيضاً، يدخلني هذا الغريبُ أو ذاك، يتغلغلُ في تفاصيلي هذا الفلسطيني أو ذاك، وقد يخرج الجميع مني إلى حكاياتٍ أخرى، وأظلّ حكاية ًمتواصلة ًعن الندى"
ستكون هذه بدايةٌ جميلةٌ، لأنها تلائم الذين غابوا وراء تلّةٍ أو منحدر، والذين جاؤا من حكاياتٍ أعرفُ بعضها، وقد أجدُ طريقي إلى بعضها ذات يوم. إنها ملائمةٌ مثل أي قصةٍ حقيقيةٍ حدثتْ وتحدث وستحدثُ، أو هذا هو ما أشعرُ به الآن على الأقل وأنا أنظر إلى الصورة التي وصلتني منذ وقتٍ قريب: أربعة أشخاصٍ يواجهون عدسة التصويرواقفين فوق وبين بقايا بيتنا في أم الزينات؛ بضعة أحجارٍ وخضرةٌ ًداكنةٌ ًطالعةٌ بينها وتحتها وفوقها، وظلالُ أشجارٍ تحف ّ بهذه البقعةِ الصغيرة تحت شمس أوائل النهار.
أربعةُ وجوهٍ مرتبكةٍ، يقول أصحابها وهم على حافة الإبتسام:
"نعم... نحن هنا لإثباتِ أن لك بيتاً في أم الزينات"
أو:
"يؤسفنا أنكَ لست معنا الآن"
يتطلعون بلا صوتٍ إليّ، أنا البعيد عنهم، تاركين لما حولهم أن ينطق ويشير. وقفة رمزية ربما. أو لعلهم يريدون أن يقولوا:
"ها نحن وصلنا أخيراً.."
متتبعين آثارَ الشيخ حمزة ودوروثي غرود وخالي المسلح العنيد إلى هذا الوادي المنسيّ، وليكتشفوا أن قريتي الغائبة عن أنظارهم ظلت ترافق مسار حياتهم، تواصل حياتها وإن وراء جدار أو أشجار، أو روايةٍ أخرى زرعها في أذهانهم مدرس لاهوتٍ قادمٍ من غيتو وارسو، فمحا بها أم الزينات وأهلها من مخيلةِ وبصرِ التلاميذ الأبرياء.
يوسف الغازي، الذي يتوسط الصورة بجسده الضخم وشاربه التركي الكثيف وإشارة يده والتفاتته كأنما إلى رأس جبلٍ قريب أو تلةٍ، يعرف لماذا هو هناك. فهو من طلب من سليم الفحماوي الواقف إلى جانبه مشيراً إلى جهةٍ معاكسة أن يقوده، هو ومترجم روايتي أطفال الندى إلى العبرية وناشرها، إلى البيت الذي ولدتُ فيه، أو البيت الذي نسجتُ منه وحوله، ومن الطرق الوعرة التي تقود إليه، أطرافاً من حكاياتِ أمّي، وبها دخلتُ أنا وأمّي هذا العالم الذي كان يجهلنا إلى حين، أي إلى حين كبر الطفلُ وتحدث، وتحدثت الكائنات.
لاأدري بالضبط ما الذي يحاوله. ربما يحاول بإشارةٍ يده إقناع ناشرالرواية الذي يتطلع حوله كأنما يدخل مسرحاً لأول مرة، بأن هذه رواية حقيقية، أو ربما ليتأكد هو ذاته من أن خيالي لم يخن نواياه الطيبة، وأنني ولدت هناك فعلا.
إلى يساره يقف ديفيد غوتسمان الناشرالشاب الذي قرر بينه وبين نفسه أن هذه حكاية مؤثرة ويجب أن يقرأها الإسرائيليون، عربا ً وأكراداً وألماناً وبولنديين وروساً وفرنسيين وأمريكيين...إلخ، مفكراً بغوامض مستقبلٍ ستعود فيه هذه الحكايات الغائبة ذات يوم، وتتغير عادات القراءة، ويظهر أطفالٌ يسألون عن أصحاب الأرض الذين طمس أباؤهم أسماء وظلال قراهم، ولم يحتفظوا إلا بأشباحهم لتذكرهم دائماً بأن سكان الحجارة هؤلاء لن ينسوا جنتهم التي طردوا منها.

هاهو الرجل الثالث الممتلئ المائل للقصر، يورام ميرون، أستاذ اللغة العربية العجوزالذي فوجئ حين بدأ يقرأ النص أنه يتحدث عن صيافير وأهالي وكروم قريةٍ مألوفةٍ. وتذكر مذهولا أنه زارها طفلاً مع أطفال مدرسته، وتعرف عليها حين كانت معصرة الزيتون والحصان الذي يدير حجرها الضخم هي الأعجوبة التي جذبت نظره؛ إنها أم الزينات ذاتها. هذا لاشك فيه. وكانت قبانيته، أو الكيبوتز بتعبيره، تجاورها، هي الطائرة في خيال سكانها القادمين من ألمانيا، لتحط كما في الحكايات الخرافية بجوار أم الزينات القائمة منذ أزل لايسبر غوره.
لاأعرف ماذا قال الناشرتحديدا أو ماذا انبعث من ذاكرته، ربما انبعثت حكاياتُ أمه عن شتيتل صغير خارج أسواركراكوف وهو يقرأعن قريتي، ولكن المترجم يورام فكر بي بالفعل، فقال على صفحات صحيفة لندنية متمهلا:
"لعلنا التقينا حين زرتُ أم الزينات في طفولتي، ولعلنا تبادلنا النظرات المتوجسة أو نظرات اللامبالاةِ. كان الفلاحون سكان هذا الكوكب لا يثيرون حب الإستطلاع بقدر ما يثيرون سخط ولعنات الأستاذ الألماني الذي زودنا بنصائحه قبل أن نهبط إلى هذا الوادي"
أياً كان ما فكر فيه ديفيد أو يورام، إلا أن أسميهما الغريبين القادمين من أماكن مظلمة لم يلمسها النورُ إلا حين امتدّ بنا العمرُ، وقرأنا قصصاً بلغة اليديش والألمانية والروسية عن فقراء كييف والقرم وحيّ النهضة في صوفيا، وشاهدنا صورَلابسي القبعات السوداء في شوارع برلين وقصص غروسمان، اتخذا هيئتين مألوفتين. وبدا الإسمان ودودين وهما يرافقان بقايا بيتي، تحيط بهما ظلال كرومنا وصخورجبلنا. وبدا لي أنهما، وهما يدخلان الصورة، يتخليان عن غرابة اسميهما، وأنهما ينتظران مني، أنا اللاجئ، أن أبارك هذا الدخول وامنحهما أسماءً أليفة وحميمة كما يمنح راهبُ المعمودية أسماءً للمولودين حديثاً. وأتساءل: من الذي ينتظران أن يقوم بطقس العماد في هذا الظل؟ أنا أم الفحماوي اللاجئ أيضاً في دالية الكرمل القريبة حيث استضافهما قبل الهبوط بهما إلى أنقاض قريتي؟
ها هو الفحماوي، الرابع في الصورة، ومازلتُ أسمعه يقول لمن حوله بعصبية ظاهرة، وعدسات مصوري الفضائية مشغولة بالتقاط صورجموع من أهالي أم الزينات في حجّها السنوي إلى بقايا بيوتها، نساءً وأطفالا وعجائز وشبانا مستثارين بالحدث:
".. وهنا كانت مدرستي التي تعلمتُ فيها"
بينما تطل إمرأةٌ وزوجها المسنّ إلى يمينه على فوهة بئرٍ تشق قاعه شجرةُ تينٍ لايظهر منها سوى غصن ببضعةِ أوراق عريضة، وتتطلع شابتان ببناطيل جينز في خلفية الصورة إلى ماوراء صف من أشجارالصبرعلى جانب طريق، إلى العتمة والزيتون المتشابك، وتميل إحداهما وتلتقط شيئا، ربما كان حجراً أو كوز صنوبرٍ يابسا.
كان الوقتُ ظهراً، لأن الكثيرين فضلوا الجلوس تحت ظلال السرومغمورين بالظلال وشذراتٍ من ضوءِ الشمس، وإحساس أنهم هنا مرة أخرى.
يقول الفحماوي لضيوفه الثلاثة:
"... وهذا هو بيت محمد.. أنا أعرف مكانه، وسأعرفه حتى لو عرّشت عليه غابةٌ صبرٍ وغطّاه البلاّن"
ثم يلتفت ويشير إلى إتجاهٍ معاكس لإشارة يوسف:
"هناك في الأعلى مقبرتنا. يارجل، توفي والدي وأوصى أن ندفنه فيها، فوقفوا في وجهنا، ودفناه في ساحة البيت في الدالية!"
وأقول واثقا ً أنه لابد سمعني أو سيسمعني:
"إنهم يخشون عودة الموتى، أو صدى الذاكرة. إنهم يذكرون جيداً كوابيس أيامهم الأولى في قرانا الخالية حين جاؤا بهم من المغرب والعراق واوكرانيا وايران ليسكنوا بيوتاً لم يبنوها وأرضاً لم تطأها

قدم سلفٍ من أسلافهم، فأحاطت بهم الكوابيس؛ كوابيس الفلاحين الذين قتلهم جنودهم في مضافاتهم وعلى أبوابِ بيوتهم وفي طرقات قراهم وبين صخورالوعروخلف السناسل الحجرية، وهم يسمعونهم ينتحبون ليلاً، أو يصرخون، أو يلقون بالحجارةِ على السقوف والنوافذ، فيتهامسون في الظلام مذعورين: "هم لن يتركونا بسلام.."

وأضيف، وأنا أحدّق في خلفيةِ الصورة، في ظلال الخروبِ والسرو ونورالشمس الذي يلتقط استدارة الحجر وعتمة التراب:

"أعتقد أن هذه الكوابيس التي تلاحقهم حتى اليوم، هي التي تجعلهم يبتعدون عن قبورِ آبائنا وأجدادنا وإخوتنا الصغار، ويتركون حجارة قرانا وحيدة مثل نجوم السماء، نائيةً وبعيدة، آملين أن تمحوها الزوابع والأمطار، أو يهبط الشيطان ويأخذها ويريحهم منها ويمنحهم السلام الذي ينشدون في هذه الأرض الغريبة"

* * *

ها أنا أكاد أقول الحكاياتِ كلها دفعةً واحدة منذ السطور الأولى. ولكن...لا...حين تبدأ الحكاياتُ تفتح أبوابها، ولن تغلقها أبداً، حتى وإن خرج منها أصحابها، وظلت تتردد في أرجائها الريحُ وظلالُ الشجر وأصواتُ العصافير، وتتسلق سناسلها أزهارُ الخبيزة والخرفيش، وتتلبث في زواياها أصواتُ الصمت، ولا تمنحها الصباحات الغائمة سوى الدموع.

هؤلاء الزائرون في الصورة زوارٌ جددٌ، وسأنتظر قادمين آخرين بالآلاف. أنا واثقٌ من أن هذه البقعة الظليلة أودعتها حياتنا وحياةُ أسلافنا من الفلاحين سرّاً عجيباً حتى وإن كان الناسُ لايعلمون. وإلا من يستطيع أن يفسّر لي هذا النداء ونداءاتٍ أخرى شغلت الغازي وجعلته يقرّر بينه وبين نفسه أن يتتبع آثار أهلي بعد أن أمسك بطرف الخيط من روايةٍ ترجمتها قبطية مصرية، واقترحت عليه قراءتها ناشرة فرنسية؟ رواية كاتبها إنسانٌ لم يصادفه في طرقاتِ الاسكندرية حين كان يتردد على دكان والده، ولا في الكيبوتزالذي أخذوه إليه بعد هجرته إلى فلسطين وحيداً، ولا في مظاهرات رفاقه الشيوعيين في حيفا؟ إنسانٌ فوجئ وهو يقرأ سطوره أن مايقرأه شعرٌ خالص، والأكثر أهمية أنه لايكره أحدا حتى ضابط الهاغاناه الذي نسف بيوت قريته وقتل جنوده فلاحيها بناء على الأوامر، والأوامر وحدها:

"لاعربي..لاحجراً على حجر"

حين التقينا في ما بعد، قال الغازي:

"لاكراهية في روايتك"!

وسألني ونحن حول طاولة سجال في بيت لوك ذو الوجه العصفوري في "جنت" الريفية في قلب غابات الفلاندر:

"هل سبق أن زرتَ أم الزينات؟"

أدهشني سؤاله، لأنه يعرف تماماً أن اللاجئ الفلسطيني لا يستطيع الوصول إلى قريته المدمرة في العام 1948، سواء كان لاجئا حتى الآن إلى أكواخ بين صخورالكرمل يتطلع إلى الغرباء يحلون في قريته مثلما يتطلع الآن أحفاد وأبناء محمد أبو الهيجاء من عين حوض، أو كان محمولا في شاحناتِ

الجيش العراقي المنسحب من جنين تتداوله آلاف الأيدي والعيون وترميه جانباً في بيوت نصف خربة في أحد أحياء البصرة ذات الشناشيل والنهر وغابات النخيل.
"لا بالطبع..كيف يمكنني أن أزورها؟"
فرد وهويتنفس بعمق:
"العجيب أنكَ تصف الشجرَ والوديان والسناسل والصبر بين بقايا البيوت كما لو كنتَ هناك فعلا!"
والتفتَ إلى فرانسواز، محاورتنا التي تجاوزت سن الخامسة والستين قفزاً واستراحت عند عتبة بيت لوك:
" إنها كما تخيلها بالضبط !"
وأقول بيني وبين نفسي:
"وكما تخيلتُ الكهوف التي نقبتْ فيها دوروثي غرود قبل ميلادي، وكما تخيلتُ الندى أيضاً، ذلك الذي بللَ شعرَ أخي وهو ينطلق إلى مدرسته في الصباح الباكر، والذي يصلني الآن رطباً كما كان، نقياً على أطراف السرّيس، منتشراً بين ظلال الخروب المحيطة بالواقفين في الصورة، وفي الإلتماعة التي يلقيها ضوءُ الشمس على وجوههم وثنايا ملابسهم وأطراف الصخورالظاهرة تحت أقدامهم، وفوق عتمة التراب حيث تلتمع أوراقُ الأعشاب وبضعة أزهارٍ برية، أزهارٌ ما زالت تعود إلى الظهور في غيابنا منذ خمسين سنة، حتى وهي لا تعرف شيئاً عن الفرح الغامر الذي يملأ أرواحنا ويتسلل إلى حكاياتنا حين نراها في الصور وبين الكلمات"

*　　*　　*

توفيت الراويةُ، راويةُ حكايتي، أعني أمّي، بعد سنتين أو ثلاث فقدتْ فيها ذاكرتها إلا من ذكرى أبنائها الثلاثة؛ ذلك الذي أصابته الرصاصات اليهودية ذات ليلة في طريق عودته إلى أم الزينات الخالية، وذلك الذي خرج صغيراً إلى روما لإستكمال دراسته ثم ارتحل إلى ليبيا وضاعت آثاره، وذلك الذي هو أنا، بعد أن مرّ بها عابراً من الكويت، وقد اصطادها صدام حسين بجيش مهلهل نصف جائع، إلى العالم الشاسع، إلى حيث لا تدري.
كانت تستيقظ أحياناً، كما قيل لي في مابعد، في ذلك البيت الصغيرمن بيوت البصرة القديمة على أطراف الصحراء، فتسأل عنا، لاتستثني الأحياءَ منا والأموات، مرتعبة من أصوات رصاصٍ وهدير طائراتٍ في خيالها وأحلامها، فيهدئ الجالسون حولها من روعها؛ محمد، بخير، وموسى، وكذلك أسعد الذي يعتقدون أنها نسيت أنه توفي قبل خمسين سنة. من الأفضل أن لاتعرف، وتظل مؤمنةً أن أبناءها المنتشرين في أماكن تجهل أسماءها مازالوا أحياء على وجه الأرض، وتحت هذه السماء ذاتها التي تراها كلما تطلعت ليلاً إلى فضائها الشاسع.
توفيت الراوية إذن قبل أن تعرف أنها دخلت الحكاية، أو صارت حكايةً كما كانت تتمنى، وقرأ آلاف الناس كلماتها، وعرفوا ملامحها وأسماءَ الأماكن التي شهدت طفولتها وصباها، وشاهدوها بين الصيافير تحدث نفسها أو تصغي للنسيم العابر بين أشجار الزيتون، وقبل أن تعرف أن أحجار بيتها تظهرأمامي الآن في الصورة، ومعها تظهر أشجارُالخروب التي طالما حدثتني عنها، ويظهر الصبرُ والحاكورة التي ألقى فيها العمُّ محمود بندقيته العتيقة وشاهده الإنجليز، فهبطوا من المرتفعات وأخذوها وأخذوه وأبي إلى سجن حيفا.

وأشعر بالأسف لأنني لم ألتقط كل شيء تقوله أو تهذي به، وغابت عني أماكن كثيرة ووجوهٌ كان يمكن أن يعرفها القارئ الفرنسي والإنجليزي والعربي واليوناني والبرتغالي، وكل الذين بدأوا يتصفحون حكاية أطفال الندى، بما فيهم قراء العبرية؛ الغامض منهم القادم من غيتوات أوروبا الشرقية، والواضح منهم، ابن البلد، الذي كانت تسميه:
"من يهود بلادنا"
وآسفُ أكثر لأنني لم أجلس إليها كما كنتُ أرغب، فأقرأ لها فصولاً مما كتبتُ، ولأراها تبتسم أو تعبس أو تتولاها الحيرة، وأترك لها فرصة أن تصحّح ما يمكن أن يكون انضمَّ إلى ذكرياتي غائماً أو متخيلاً، وفرصة أن تعلّق، فتضيف لوناً هنا وصوتاً هناك، أو تترك فراغاً موحياً بين الكلمات، وفرصة أن تصل حكاياتٍ كثيرة بالزمان، حكايات لم ألتقط إلا بداياتها؛ مصائر كرومٍ ربما تكون اختفت من الوجود، أو نساءٍ لم تقدمني إليهن تقديماً كافياً، أو رجالٍ عرفتُ ملامحهم كما لو أنهم في صورةٍ جانبية لطيورٍ بعيدة على شاطئ بحرٍ، أو عصافير تطير اسراباً بلا ملامح خاصة لعصفور واحدٍ منها.
ولكن أمّي، قبل أن تفقد ذاكرتها، غيّرتني، حوّلتني إلى راويةٍ من دون أن تدري.
وأتساءلُ الآن، وأنا أراها تتراءى وراء الرجال الأربعة في الصورة، وتجلس في الظلّ تحت شجرةٍ في عمقِ المشهد، وتضع يدها على رأسي، أنا الذي لا أتخيل نفسي إلا مجاوراً لها، في البيتِ وبين أشجار الزيتون وفي الطريق إلى الدالية ليلاً حين كان الرصاصُ جمراتٍ حمراء تتوالى في السماء السوداء، وفي ذلك البستان الذي افترشنا أعشابه تحت أشجار اللوز في جنين:
"هل من المعقول أنها لن تكون معي حين أعود أو يعود أحفادها؟"
ستكون سعيدة الآن مادامت حكاياتها وأحاديثها بينها وبين نفسها لم تتحول إلى دخانِ موقدٍ، ولا ظلّ موقدها بلا حطبٍ، ولا ظلت نحلةً سجينة في قارورة، وما دمتُ أنا نفسي أصبحت راويةً أيضاً، أستطيع أن أقصّ حين يسألني أولادي عن تلك الأيام، فتترقرق الدموعُ في عيني أناهيد كما كانت تترقرق في عيني وأنا أصغي لأمي، أو ينفعل غسانُ صامتاً ويدير عينيه جانباً، تماماً كما كنت أفعل حين يتولاني شعورٌ غامضٌ بأنني أحد الأبطال الراحلين في حكايات أمّي، أو تنتبه زوجتي وصال المولودة في بغداد وتقترب وتستظل بغيمة بدأت تظللنا جميعاً.
يبدو أنني أصبحتُ راويةً بالفعل. فأنا لم أعد أستطيع الحديثَ إلا متنقلاً بين مصير الراوية وروايتها، وبيني وبين ما أروي. ويثيرني أن الكلمات لم تعد أصواتا تتلاشى مع طلوع النهار، بل شرودَ أناسٍ وحسراتهم وأفراحهم وبلادهم وحقولهم، والأثلامَ التي حفرتها دموعهم في أرواحنا. ولربما خطر لي أن أسأل ذات يوم:
"ترى من أكون؟ هل أنا أم الزينات؟ هل أنا أمّي؟ هل أنا كومة الأحجار هذه؟ أم أنا نسماتٌ تمر بين أشجارالزيتون، وصوت هذه البيوت المهدمة والمقابرالتي نثروا حجارتها والمآذن الخربة والقباب والأشجارالمهملة التي كانت قرانا؟"

* * *

عبر الهاتف يجيئني صوتُ ميشيل بيتيت مدرس الانجليزية من باريس:
"كنت أعتقد أن بلادكم صحراء... ولكن هاهي شجرٌ وخضرةٌ وصخورٌ...مشهدٌ يماثل ما عندنا في أوروبا!"

حدث هذا بعد أيام قليلة من مشاهدته لصورة حجارة أم الزينات وسروها وأعشابها وهي تطل غربا على سهول ومرتفعات تنتهي ببحر غائم يلوح في الأفق.
فأقول:
"لم تكن بلادنا صحراءَ في يوم من الأيام ياصديقي، إنها من بلدان حوض المتوسط. ألا تعرف الكرمل؟"
كانت الصورة بين يديه باقتراحٍ مني حين طلب صديق عرفه في باريس إرسال الرواية إليه:
"ارسلْ هذه الصورة أيضاً حيث كانت الأحداث وكان الناس ذات يوم...دعه يشاهدها"
ويتردد ميشيل قبل أن أسمعه:
" آسف...لم أكن أعرف هذا..أين قلتَ لي موقع قريتكم؟"
" على قمة الكرمل، الكرمل المطلّ على حيفا"
"إذن...عليّ العودة إلى الخرائط... سأستكمل معلوماتي، هذه الصورة لوحة رائعة... سأضعها على جدارغرفتي"
وتساءلتُ وأنا أعود إلى الصورتين؛ صورة سرو أم الزينات يطل على الساحل الغائم، وصورة الرجال الأربعة بين الظلال:
"هل نحن مجهولون إلى هذا الحد؟ إذن ماذا كان يفعل كتابنا وشعراؤنا، ضيوف المهرجانات الباذخة والمؤتمرات والسهرات، في العواصم الغربية؟ ألم يأخذوا صورنا وصورقرانا معهم؟ ألم يحملوا ملامحنا؟ أم أنهم ألقوا بنا في الظلام قبل دخولهم من بوابات الحدائق الغربية. من المؤكد أنهم لو لم يفعلوا هذا لما التقطتهم عدسات التصوير وأعمدة الصحف، ولظلوا مجهولين كما هي مجهولة فيافي الصحراء".
وجاءني هذه المرة صوت فرانسواز:
" شاهدتُ في بروكسل فيلم بوابة الشمس، وتذكرتُ كل ما حدثتنا عنه في بيتنا الريفي"
ذكرها الفيلم بالفلسطينيين الذين اقتلعوا من قراهم، بتدمير البيوت، بقتل النساء والأطفال ورجال الفلاحين في بيوتهم وعلى الطرقات وفي الأسواق، كانت مستثارة، وهتفت بانفعال:
"كم كنتَ صادقاً! "
في مساء ذلك اليوم الذي تحدثتْ عنه، كان عليها الإنتقال من جنت إلى بروكسل بصحبة لوك وسيارته الصغيرة ومشاغله هناك مع الفلامش الذين لايحبهم كثيراً، وأعادتها هذه الساعة التي استغرقها طريق العودة إلى سجالنا مرة أخرى، وإلى تلك الرواية فاتحة السجال، سجال عودتي، أنا والغازي، إلى زيارة حياتنا الماضية، أحياناً كلا على حدة وأحياناً مترافقين. هو يبدأ من إطلالته عبر نافذة بيت أسرته في الإسكندرية على الشارع ورصاص الإنجليز ينهال على المتظاهرين، وأنا من شعوري أن أحداً ما حملني على كتفه وانطلق بي تحت غطيطة الفجر بين صيافير الكرمل في تلك الليلة؛ ليلة الهجوم على سناسل أم الزينات واحتلالها.
تتوقف فرانسواز عن الحديث، وأعود إلى شيء منسي ضائع لم أفكر به قبل هذه اللحظة:
"إذن مرّ أكثر من خمسين عاماً من دون أن يرسل فلسطيني صورة قرية من قرانا إلى إنسان يعيش هناك في أوروبا. كم أنا ممتنٌ إذن للياس خوري صاحب بوابة الشمس! لقد أقام صلةً بين أوروبية وفلسطيني قال ما قال وهي تنظر إليه بين مصدقة ومكذبة"
كان علينا أن نرحل فوق هذه الدروب أيضا؛ في حقول القرى الأوروبية، وفي شوارع عواصمها، ونستمع إلى ضجيج ميادينها، أو نقف على ناصية شارع من شوارعها ونقول حكايتنا. لاأحد قال هذه الحكاية كما يبدو، والآن... الآن فقط، يمكن أن أهبط كما هبطتُ ذات أمسية، في ضيافة عجوزين، إمرأة وزوجها، يذكّران بأقزام حكاية قطر الندى في الغابة، ويدور حديثٌ عنا، نحن المجهولين طيلة

كل هذه السنوات، والآن..الآن فقط...سيعرفون في أمسياتهم وشوارعهم ومكتباتهم ومطاعمهم من نحن، سيعرفون حكاية "جبينة" الأثيرة عند أمّي وأخواتي، وسأعرف أن عليّ أن أواصل الحكاية.

ترجمات

بعد أن دخل المجهولون الأربعة حكايتي، أو الظلالَ التي تحيط بهذه البقعة الصغيرة في الوادي المألوف منذ الطفولة، أدركتُ أن أمراً بدأ يحدث بين السطوروفي العالم الواسع، ماكتبتُ عنه وما لم أكتب، ما عرفتُ منه وما لم أعرف بعد.
لم يعد العالمُ متناهياً، ولا أصبحت الحكايةُ مجرد أوراقٍ تبدأ بقدر مجهولٍ وتنتهي بقدرٍ معلوم. بدت الحكاية على غرارِ هذا العالم الذي يتفتح ويتوالد أمكنةً وبشراً، نسيجاً يشارك في حياكته أناسٌ من جنسيات وديانات وأعراقٍ مختلفة، الأحياءُ منهم والأموات، من وُلد منهم ومن لم يُولد بعد؛ حكاية لامتناهية أكثر شبهاً بكتاب الرملِ الذي اشتراه الأعمى الأرجنتيني بورخيس من طارقٍ طرقَ بابه لقاء حفنة دولارات وإنجيل مشكوكٍ في صحتهِ، بعد أن اكتشف وهو يتصفح أوراقه أنه بلا بداية ولا نهاية مثلما الأبدية، وأثاره أنه عالمٌ يمكن أن يكون فيه الإنسانُ في هذه اللحظة أو تلك أو في هذا المكان أو ذاك؛ عالمٌ بلا مركز، حكاية يدخلها الناسُ، يخرجون، ولكنهم يعودون إليها في نهاية لاتنتهي.
أول هؤلاء النساجين سيكون سارة واصف، المترجمة القادمة من المستقبل، أعني بعد اجتياح قريتنا وتدميرها بما يقارب نصف قرن، حين وقعت بين يديها رواية أطفال الندى.
هاهي جالسة الآن وراء مكتبها في معهد العالم العربي في باريس وراء الواجهات الزجاجية المتعددة والممرات الشبيهة بالمتاهة، وهاهي تأخذ الرواية بين يديها منجذبة ربما إلى لفظة الأطفال في العنوان، ثم غرابة هذه الصلة: أن يولد الأطفال من ندى. أية خيالاتٍ أوحتْ بها هذه الصلة؟.
حين كتبتُ العنوان لم أفكرُ أن أبي كان قطرة ندى، أو أن أمّي كانت قطرةً أخرى، بل كنت أفكرُ بحدث غاصَ في أعماقي حين قالت أمّي ونحن نتجمع حولها ذات ليلة شتائية في غرفة ضيقة من غرف مهجع الجنود المهجور في معسكر الشعيبة:
"..وكنتم تعطشون فنجمع الندى بأكفنا من أوراق الشجر ونسقيكم"
وتخيلتُ الوقتَ؛ لابد أنه كان فجراً، ففي طرقات الفجروحدها تلتمع فوق الأوراق قطراتُ الندى. كل هذا حدث بالفعل، ولم أحسب حسابَ تموّجات قد تثيرها كلماتُ أمي البسيطة الواضحة في ذهن القاريء، ولا حسابَ الشواطيء التي قد تندفع إليها.
في الماضي قالت سلمى الجيوسي المقيمة في كيمبرج الأمريكية بلهجتها المدرسية رغم مغادرتها قاعات التعليم الجامعي منذ زمن طويل كأنها تتحدث عن ملاعق:
"مؤثرٌ جداً مشهد هؤلاء الأطفال"
أما الآن، فها هي امرأة قادمة من المستقبل لاتتحدث عنا كمن يتحدث عن ملاعق، بل تُؤخذ بمشهد أطفال تحت أشجار اللوز، أو بين الصخور وأشجار السريس.
حين ذهبتُ لرؤيتها، بعد اجتياز عشرات الردهات الزجاجية والوجوه اللامبالية، لم تكن في مكتبها، ولكن انجذابها إلى رواية كاتب لاتعرفه يقول لي أن ضياءَ نجمٍ بعيد مهما كان موقعها على هذا الكوكب لابد أنه جذب نظرها مثلما جذب نظرَ أول إنسانٍ انتصبت قامته على سطح الأرض، وليجذب بعد ذلك أنظار الملايين في مقبل الأيام، ويواصل إضاءة أحلامٍ مشتركة عبر الأزمنة والأمكنة. ألم يقل لوركا ذلك الذي سقط قتيلا في أحراش الزيتون بجوارغرناطة أن قلبه يصغي إلى تنهدات حمامة وحيدة سقطت بين الأشواك؟ ولماذا لا أكون تلك الحمامة بين الأشواك التي أصغت إليها هذه المرأة الجالسة بين أكداس أوراقها؟
هاهي روايتي بين يديها إذن، وبعفوية بالغة بدأت تنسج معها علاقةً من نوع ما. دعنا لانستعجل تحديد نوع هذه العلاقة، فأنا أعرف أن الصداقة بين كتابٍ وإنسان هي في الحقيقة صداقةٌ بين كائنين قد تتولد عنها حكايات وحكايات.
هذه فكرة كرّرتها على مسامع أناهيد فإذا بها تظهر بعد سنوات في مطلع حكاية ولدت في ذهنها وهي في قاعة محاضرات جامعية. بدأت الحكاية بلقاء خيالي جمعها بكارل ماركس أمام ضريحه المهمل

في هايجيت، فأخذته أو أخذها إلى لندن القرن التاسع عشر، إلى الحانات والمكتبات ومقبرة طفلته الصغيرة، ثم إلى لندن المعاصرة، إلى حيث اختفت المقبرة والبيت الذي طُرد منه لأنه لم يستطع دفع إيجاره، وحلّ محلَّ كل هذا عالمٌ يغوص فيه الناسُ في الأنفاق ويخرجون من الأنفاق من دون أن يكلم جارٌ جاره في المقعد المجاور. تماما مثلما حدث حين التقتْ بأطفال الندى، وولدتْ في ذهنها حكاية لقائها بجدتها الراوية التي لم تغادر طفولتها حتى هذه اللحظة، ورافقتها في طرقات الرواية، وأخذتها معها إلى سكنها الجامعي وقاعات المحاضرات وسهراتها مع طالبات قادمات من شواطيء المسيسبي وظلال المعابد الهندية وصقيع صوفيا حيث تذوب الثلوجُ البيضاء على أطراف تماثيلها البرونزية ومصاطب حدائقها الحجرية.
سيقال لي أن سارة تنحدر من أصول مصرية، وقبطية تحديداً، فلا تصيبني الدهشة، فحتى لو قيل أنها تنتمي إلى شعب الأزتك أو المايا، لما أدهشني أن تلتقطني من بين الأشواك ويمتد بها الخيال، وتبدأ باستكمال النسيج، فأنا في النهاية لم أكتب شيئاً غريبا عن أي إنسان في أي زاوية من زوايا هذا العالم.

* * *

قلت للصديق الفنان عبد الهادي شلا:
"أترى إلى هذه الصورة؟ هذه أحجار بيتنا المتناثرة منذ خمسين سنة يغمرها العشبُ هنا أو هناك وتظللها أشجارُ الخروب. خذ مشهد هذا الحجر أو هذه المرجة الخضراء وضوء الشمس المتساقط عليها واخلق تكويناً.."
كنتُ مستثاراً، وأودّ أن أشرك معي أكبرَ عدد ممكن من الناس في اكتشافي أن أحدنا يمكن أن يزور ذاكرة الآخر، وبهذه الطريقة ينشأ معه ويرافقه.
وتابعتُ:
"... الذاكرة يا صديقي ليست مجرد أن نستعيد مشاهد من الماضي، ساكنةً كأنها منتزعة من شريط صامت، بل أن نحيا المشاهد بامتلاء يماثل امتلاء وجودنا، إنها متحركة دائماً، وعلينا أن نستيقظ من غفوة طويلة. نحن لسنا هذا الحاضر فقط، ولا هذا القادم الذي نتخيله، نحن الماضي والحاضر وما نتخيل في هذه اللحظة الراهنة"
كنتُ في الحقيقة أبرّرتطفلي على انشغالات فنان قضى أكثرمن أربعين سنة بين جدران مرسمه مفكراً بألوانه وخطوطه وهي تمثل أمامه على قماش لوحته بعيداًعن بقعة ظليلة مثل هذه، عن بقايا بيت حقيقي وأناسٍ حقيقين بدأوا يتوافدون من طرق مختلفة إلى حكايتي، حكايتي التي تتساءل الآن عن هويتها: هل هي حكاية أمّ جاءت تتفقد أطفالها، أم حكاية أخي الذي عاد ليجمع شظايا أوراقه المدرسية، أم حكاية الأخوات الباحثات عن أخيهن الذي يعود إلى الوعر كل ليلة ولا يرجع، أم حكاية أبي المفجوع وقد دفنه شاباً وحيداً لم يتجاوز العشرين من عمره في مقبرة منسيةٍ في جنوبي العراق؟
قال شلا ووجهه يستعيرخطوط لوحاته ذاتها متفحصا الصورة:
"سآخذ هذه الزاوية حيث تلتمع الحجارة، وهذه.. وهذه أيضاً. سآخذ عدة لقطات ولكَ أن تختار منها مايعجبك".
مرت لحظات.. ثم :

"الأمرُ ليس ما يعجبني أو لا يعجبني يا صديقي. كل زاوية في هذه الصورة ستكون لها حكاية تروى. قد لايعرف الكثيرون مصدر هذه الشظية أو تلك، ولكن لن يمرّ أحد لامبالياً أمام اختيار المصور لهذا التكوين: بقايا بيت فلسطيني نسفه يهودا ومستعمرو يكنعام قبل خمسين سنة، ومرج مهجوروأشجارساكنة بين الظلال، وهؤلاء الضيوف الذين حلوا بفناء هذا الغياب. ألا تلمح امرأةً فلسطينية تحت الظلال؟ إنها...أمّي"

وتطلعتُ إلى وجهه باحثا عن أثر يتجاوزالإحساس التقني باستدارة الحجراللامع والخضرة الطاغية، أو لأتخذ منه شريكا في حكاية لم تتوقف عن الامتداد لتحيط بكل المجهولين، أو لأقيم صلةً على الأقل بينه وبين ضيوف هذه الظهيرة، أنا المعنيُّ بكل هذا، ومن وراء ذلك صلة بروح المكان والناس.

شرحتُ ما أفكر فيه:

"لم نعتد في ثقافتنا اللفظية على التقاط المشهد والإحساس به، وتركيز النظرعلى المكان وأناس المكان، رغم أن المشهد هو ما يولد معنا وفينا. كلنا ألفنا، أو جعلونا نألف أن المكان لغة منذ البدء، شيئاً تقيمه اللغة وتحفظه اللغة. أن تسمّي فمعنى ذلك أن تخلق. ولكن كيف لمن يتعامل بالبصر واللمس والحسّ مثل كائن برّي يعيش الموجودات ويتنفسها أن يطمئن إلى هذا النوع من الخلق ويقيم فيه؟ ألن يكون المتشرّد الأبدي خارج المشهد والمعنى؟ يبدو أن اعتياد اللغة سوّغ لنا نسيان الأمكنة بعد أن سكنتْ في الألفاظ. علينا أن نعود إلى المشهد، إلى أول الأصوات والألوان التي سمعنا ورأينا منذ الطفولة، وعلينا الإيمان بها"

لم يزد شلا على أن هزّ رأسه متمتماً:

"بالضبط".

ورنّ في سمعي صوتُ أحدهم يقول بعربية مصقولة وهويسير بمعطفه الثقيل تحت سماء اوسلو الداكنة:

" اللغةُ هي وطني الذي لا أملك غيره"

وتساءلتُ بيني وبين نفسي:

" هل هناك حياة في اللغة بعيدا عن الأرض التي نعرف والسماء التي ترافقنا ؟ اللغة تمحو الأصل، تبتكر رغوةً تطفو فوق الموجودات، اللغة تحدّد لي مايجب أن أشعر به أو لاأشعر به..ويدعوها هذا السعيد وطناً!"

مثل هذا الوسواس لابد أنه هو ذاته ما أصاب هؤلاء الذين احتلوا قرانا وجاسوا خلال حقولنا، فبدأوا يمحون المشهدَ ويطلقون أسماءً على كل ما يصادفون، على الوديان والجبال والتلال والقرى والينابيع، وحين لم تسعفهم محفوظاتهم أمام بعض الأسماء المستعصية أدخلوا تحريفاً على أصوات أمكنتنا ليسكنوا في التحريف، فصارت عينُ حوض الجميلة آين هود، و طلحةُ تلَّ حي ، و القدسُ اورشاليم، وصارت قرية الصفصاف سفسوفا، والمجدلُ أشكلون!. هؤلاء المولودون من لغةٍ بلا مكان يكرهون الأمكنة، ولا يستطيعون أن يجدوا لهم مكانا إلا في الألفاظ، في اغتصاب وانتحال السهول والوديان، بل وحتى معصرة الزيتون الفلسطينية وحجر الرحى والثوب الذي طرّزته أمهاتنا بعروق الشجر والأعناب وأوراق الأزهار. هل يأتي يوم ينتحلون فيه حكايتي أيضاً، فيقف أناسُ الحكاية: الشيخ حمزة وأبي وأخي والقطروز والخال العنيد والالاف الذين يتجولون في طرقاتها بوجههم، فيطلقون عليهم الرصاص مرة أخرى؟

أعود إلى الصورة صامتاً. أتذكر إدوارد سعيد، ذلك الذي استعاد الأمكنة وتجول فيها في أيامه الأخيرة، وأدهشه وأثار حنانه هذا التنوع الذي بدأ يزحم ذاكرته وهو على فراش المرض: البيت المقدسي الذي ولد فيه. الجدران الحجرية. البئر القديمة. تلك التينة في باحته الأمامية. البيت القاهري في حي هاديء وهو يعود إليه من مدرسته الإنجليزية، وأخيرا ضوء مكتبه الخافت في جامعة

كولومبيا بين أكداس الكتب أو في قاعة محاضرات أمام وجوه طلبة من مختلف الأعراق واللغات، أو وهو يقرأ على شاشة حاسوبه رسالتي إليه:

"هل وصلتكَ رواية أطفال الندى؟"

فيضرب بعصبية على مفاتيح الحروف، ويجيب:

"أية رواية ؟ لم يصلني شيء"

كان يفكر في أن المكان لم يعد ذا أهمية في تحديد هوية الكائن. ومع ذلك شاهدتهُ قبل أن يغرق في صمته، يوصي مرتجفا أن يؤخذ إلى هناك، إلى ظلال أرز لبنان، إلى مكان محدّد يدفن فيه. لم يقل ادفنوني في الهواء أو في ملتقى تيارات الألفاظ المتدافعة من كل اتجاه والذاهبة في كل اتجاه.

* * *

على الطرف الآخر من الهاتف كانت سونيا كومب متردّدة. هي تؤمن بالمصادفات، إلا أن ما ترويه صديقتها سارة يتجاوز المصادفات ويصل إلى أرضٍ يتعارف عليها الناسُ حتى وإن فصلت بينهم مسافات كونية شاسعة وأزمنة مترامية.

منذ أيام قليلة فقط مرّ بها اسمُ دوروثي غرود، وهاهو الاسم ذاته يأتيها من مصدرمجهول كأنما من غابة على لسان صديقتها. تحدثها عن رواية فلسطينية تتراءى فيها دوروثي شابة، تظهر وتختفي بين شعاب الكرمل، ثم تصل إلى المغارات التي نقبت فيها، وتعود معها إلى الحياة أماكن كانت حتى وقت قريب مجهولة لم تصل منها سوى الأسماء، أسماءٌ لاتعني لها الكثير مثلما يعني نهر السين مثلا، أو مقبرة الأب لاشيز، أو عمود لاباستيه.

سونيا مسؤولة عن تحرير الكتب التاريخية والآثارية في دارآلبن ميشيل، وما تزال أمامها مخطوطة باميلا سمث عن عالمة الآثار البريطانية بعد أن اكتشفتْ أوراق يومياتها وملحوظاتها في صناديق مهملة في زاوية بعيدة عن الأنظار في المكتبة الوطنية في باريس.

كان من المعتقد طيلة نصف قرن أن هذه العالمة الضئيلة الجسد ذات النظارة الطبية قد أحرقت أوراقها، ولكن هاهي تعود وتتنقل في ثلاثينات القرن الماضي بين فلسطين وكردستان وجبل طارق ساعيةً وراء الإنسان الأول وأدواته الحجرية وجماجم موتاه فرحةً بالقليل من الأحجار الملونة والشظايا المسننة، وهاهي تستقر في فرنسا بعد أن تعبت كما يبدو من ملاحقة إنسانها الساعي على سلّم التطورمليون سنة بعد أخرى، وها هي تقفز حية ونشطة على صفحات رواية جاءت من المجهول.

ردتْ سونيا، وعيناها معلقتان برؤوس الأشجار وراء زجاج نافذتها:

"هذه مصادفة غريبة. أين يعيش صاحب هذه الرواية؟"

"لاأدري..الرواية مطبوعة في لندن في العام 1990، ويقول الناشر من وراء شاربه الكث كما أظن، أنه لايعرف أين يقيم كاتبها الآن. غيوم كثيرة مرّت منذ أن نشرها وتركها مع كاتبها في مخزنه اللندني"

"وهذا أمر غريبٌ أيضاً..هل جاءته من مكان مجهول، ومن كاتب مجهول، ومع ذلك نشرها؟"

"كل ما عرفته أنه فلسطيني، ولابد أن يكون في مكان ما على سطح هذا الكوكب، يروي حكاية مؤثرة عن قريته وأناسها، وكيف تم تدميرها في العام 1948، وكيف تفرق من نجا من أهلها..في هذه الرواية تسمعين أصوات صمت الحجارة والصبار وأحراج الزيتون"

"على أي حال..ترجمي لنا فصلا أو فصلين ودعينا نرى ما يمكن أن نفعل"
وضعتْ سونيا سماعة الهاتف، نهضت إلى النافذة، رأت الأشجارالآن بكامل خضرتها، وأحسّتْ بالنسائم بين أوراقها. تحت الأشجار واجهة مطعم على الرصيف بمقاعد خالية إلا من مقعد يشغله رجل وحيد أبيض الشعر مشغول بتناول أول إفطار له في باريس كما يبدو، لأن الرجل كان يتأمل ما حوله أكثر مما يتأمل ما بين يديه.
وبدأتْ تحاول التفكير بصلة ما بين الفضاء المفتوح أمامها على رجل وحيد وعابرين تحت ظلال الأشجار، وبين ما سمعته والأوراق الراقدة على مكتبها، أوراق سيرة حياة تبدّدت بين الصخور والكهوف تتحول الآن إلى أكثر من أوراق وصورعتيقة وإمرأةٍ ترقد الآن في عتمة قبر تحت سماء باريس، إلى حياة تبدأ بالنهوض بين سطورورواية هذا المجهول غير البريطاني، بل وغير الأوروبي.
في البداية، حين جاءتها المخطوطة، طلبوا منها أن تدقق في سلامة المعلومات والمراجع، لاالقرى المدمَّرة ولاحكايات اللاجئين الفلسطينيين، ولكن هاتف سارة بدأ يزيل تدريجيا سياجاً وركاماً أحاطا منذ زمن طويل ببقعة نائية في ذاكرتها. ذاكرة قرية الطفولة التي محتها الحرب في غابات جنت البلجيكية، ومرّت الدبابات الألمانية على أنقاضها، وتلاشت صورتها كما تتلاشى صورة على شاشة عرض سينمائية في قاعة ظلت تجلس فيها وحيدة زمنا بعد أن غادرها المشاهدون؛ الأب والأم، والأخ الذي غاب منذ بداية العرض وظل اسمه يتردد على الشفاه طويلا. أين حدث كل هذا؟
هذه المنطقة الغامضة، البعيدة وراء أبراج كنائس باريس وانعطافة السين وتلة مونمارتر، تقع هناك في سهول الفلاندر، على أطراف غابة، وأمام حقل يمتد باتساع لاحدود له حين ترتفع شمس أوائل النهار، وتتصاعد نداءاتٌ من هنا وهناك، وتظهر بضعة أبقار بيضاء تتحرك بين أعشاب عالية وسماء زرقاء تتباعد كلما امتد النظر.
انا الذي لم يكن هناك يوماً، سأقول لسونيا في مابعد، ونحن نتجول في تلك الغابة:
"غريب أن تحدث حربٌ هنا، فمن يمتلك كل هذا الجمال، هذه الغابات والظلال والبحيرات وحقول القمح واصوات الطيورالتي تبدأ غمغمتها في سكون الفجر ثم تتصاعد مع انتشار ضوء النهار، لايمكن أن يفكر بالحرب، الحمقى وحدهم من يفكرون بحرب في هذا المكان"
فتقول وهي تدوس عشباً جافا:
"ومع ذلك كانت الحربُ، واخترقت الدباباتُ هذه الممرات الظليلة ليلا أو ذات نهار غائم، وأطلقت مدافعها على بيوت القرويين، وسحقت قنواتِ الري وأجسادَ الشبان الذين سقطوا بنيرانها، وحولت الأفق الذي تراه إلى ستارٍ من دخان ونار وأشجارٍ محترقة"
ترى هل تحدثَ صاحبُ الرواية عن مشاهد مثل هذه؟ هل اختفت قريته من الوجود كما اختفت قريتها، وعاد كل شيء إلى ألفاظٍ في كتاب أو موسوعة أو إلى نقطة سوداء في خريطة يعيد الأب العجوزنشرها ويشير باصبعه إلى نقطة هي الآن في خياله عالمٌ يضج بالناس والطرقات والنبيذ وسطوح القرميد الحمراء والغيوم؟

*　　　*　　　*

سونيا الساهمة أمام نافذتها يفاجئها هذا العالم المنسيّ بكائناته مثلما يفاجيء رذاذُ المطرسياجاً أو جداراً واهيا يحيط ببقعة أرض لم تكن تراها، ولكن يوسف الغازي، المقيم في رامات غان على حافة

يافا، فاجأه شيء أشدّ عمقا. سيكتشف بين سطور الرواية الأساسات الحجرية التي عرّشت فوقها أشجارُ الخروب والتهم الصبارُ حواكيرها من دون حاجة إلى إشعال حريق في غابة، ويثير خياله عالمٌ لم يفكر فيه بوضوح، وإن كان يلمحه أحياناً في وجوه القرويين الفلسطينيين حين يصادفهم في طريقه إلى القدس، مثلما ظلّ يلمح، ما أن وصل قادماً من الاسكندرية منذ الخمسينات، مجاعاتٍ ريفية وبريقَ عيون في ظلمات بيوت خالية متداعية، وسناسلَ حجرية لم يكن يعرف حتى تلك اللحظة من أقامها، ولماذا تبدو وكأنها نبتت من الأرض والسفوح؛ مجرد حجارة بيضاء مركومة بانتظام ساذج تتلوى بين الحقول والمرتفعات، فتطمرها الخضرة حينا والترابُ في أحيان أخرى، ولا يقول له أحد من أين جاءت.

حين عاد بعض الجنود من غزة بعد احتلالها في العام 1956، حدثه عن أناس عجيبين بدأوا يقولون حين سألهم من أين هم :

".. نحن من المجدل"

".. نحن من عسقلان"

".. نحن من الكرمل"

وتبلبل يوسف مثلما تبلبل الجندي. نظر كلاهما إلى ما تحت قدميه وحوله. بدت لهما الأرض مختلفة. هناك إذن في هذا المشهد أناس آخرون، قرى ومدن خفية لم يحدثهم أحد عنها. من أين جاء هؤلاء الناس؟ من أين نبتوا فجأة مع أن لاعلامة تشير اليهم، لاطريقا يحمل اسما من أسمائهم، لاحرفا يتصل بهم؟

المخطوطة تحتشد بالأسماء والإشارات واتجاهات الطرق. وبدا ليوسف مثلما بدا للجندي أنه غيمة عابرة يود أن يحط في مكان مألوف ولا يجد.

"هذا شعر خالص..!"

كانت هذه عبارته للوهلة الأولى.

وسمعته سونيا، الصديقة القديمة منذ أيام دراسته في باريس، من وراء مكتبها:

"..هذه رواية رائعة...رائعة...تستحق النشر...سأكتب مقدمة لها...تاريخاً"

في تلك اللحظة نفسها أو قبلها بأيام كان الاسكتلندي الستيرماكنتوش في إبردين يضع اللمسات الأخيرة على كتابه روح وتراب، ويكتب متذكراً أطلال قرى المرتفعات الاسكوتلندية والإنكليز يغزونها ويطردون سكانها إلى ما وراء البحار:

"بالطبع، هذا هو الشعر. حين تستعيد الجماعة حياتها وعلاقاتها بنفسها والمكان الذي عاشت وتعيش فيه، وحين تستعيد علاقاتها بالروح وتكتشف نفسها، وأنها قادرة على تغييرالألوان والأشكال واتجاهات الطرق، تخلق شبكة علاقات، وسيكون كل هذا في أعمق مستوياته شعراً خالصاً"

وعاد يوسف إلى التساؤل:

"هل اكتشف هذا الفلسطيني أن الأغنية التي كان يغنيها وسط الحشد ليست أغنيته، وأنها لاتصدر عن بوابات روحه المفتوحة، وتاق إلى أغصانه وجذوره الشخصية، هنا في قريته الجبلية فوق مرتفعات الكرمل؟"

قبل أن يرحل الصديق الشاعرمحمد القيسي عن عالمنا بسنوات، توقف أمام فصول من أطفال الندى وهي تتوالى على صفحات صحيفة كأنما سمع نداءً يجيء من خارج الحشد، صوتاً صافياً تعرّف فيه على أغنيته التي لم يغنها بعد، تلك التي لم يستطع أن يغنيها حتى تلك اللحظة. كان يتخذ طريقه إلى الأغنية متعرجاً أو منحدراً في شوارع عمّان، أو ساهماً تلفح وجهه رياح صحراوية على أطراف الدمّام، فتبعده عنها طرقات تدور حولها، حول ظلالها وصخورها وأناسها، فيدور ويدورباحثاً عن طريق، عن مصدر الصوت القريب والبعيد معاً؛ كل شيء كان هنا إذن.

ويتوقف القيسي عن الكتابة طيلة ستة شهوركما قال لي ونحن نتصادف في زحمة مهرجان شعري، فيواجهني منفعلا:
"يارجل...ماذا فعلت بي؟ هذا هو بالضبط ما كنت أود كتابته"!
يوسف يواصل القراءة، قراءة عربية يصادفها لأول مرة.
لم يرجعه عالمُ الفلاحين هذا إلى مكان شخصي يعرفه، أو زاره طفلا ذات يوم كما حدث مع المترجم. ربما انتقل به خياله إلى اسكندريته الخاصة، تلك التي ما زال يصنعها كل يوم من خيالات ووقائع، إلا أنه بدأ يصغي جيدا؛ هاهنا أغنية خاصة، أو هي الحكاية التي لمح طرفا منها في حديث الجندي العائد من غزة، وها هي تُروى بطريقة مختلفة، وعلى ناصية شارع مختلف، وعلى أسماع أناس مختلفين.

يسرى تحت ظلال الخروب

ضحكت الفلاحةُ الفلسطينية الطويلة، تسلقت الفراشاتُ شنتيانها، واحتضنتْ طفلها بشغف واضح. فارعة الطول حتى في جلستها على صخرة، وبدتْ المرأة المجاورة على مقعد منخفض ضئيلة بشعرها الجعد وملابسها الاوربية وهي تنظر اليها وإلى طفلها.
هذه كائناتٌ مرتْ في ذاكرة ظهيرة، ارتسمت في صورة، تاركةً وراءها جذلا واضحاً على امرأتين تداعبان طفلا يقف في حضن أمه، فتحيطه بيد ها اليمنى وتشير إلى المرأة الأخرى بيسراها كأنها تسأله عن اسمها. كلتاهما بجوار حائط ٍ طيني وخلفهما أشباح الأشجار، والطفلُ بثوبه الأبيض المطرّز وطاقيته يتطلع صامتا ً إلى هذه المرأة العجيبة التي لاتشبه أمه ولكنها تبسط يدها وتدعوه اليها.
الظلالُ نفسها، وشذراتٌ من ضوء الشمس ذاتها، ومع ذلك لايمكن لهذا الظلّ والضوء أن يتساقطا أكثر من مرة واحدة على المشهد ذاته أو على هذه الكائنات ذاتها التي التقت قبل ثلاث وسبعين سنة.
يقول التعليقُ المكتوب بالانجليزية تحت هذا المشهد:
"دوروثي غرود مع يسرى، إحدى النساء اللواتي نقبن في كهوف الكرمل في العام 1934"
وفي مكان آخر من يوميات عالمة الآثار هذه أجد لمحة أخرى تتحدث فيها عن الفريق النسائي من الفلاحات الفلسطينيات اللواتي قادتهن بين كهوف الجبل، ونفذن الجزء المهم من الحفريات بأكمله.
لماذا أتذكرُ هذا الذي لم يكن جزءً من حكايتي ثم أصبح فجأة خيطاً في نسيجها؟
في البداية، حين كتبتُ رواية أطفال الندى، لم يكن ليسرى وطفلها وجود، وكانت غرود ظلا كما كانت في ذاكرة الثقافة الغربية حتى وقت قريب أيضاً، وظل غائماً في ذهني مشهدُ الأطفال الذين وجدوا أنفسهم في مغارة يعبثون بعظام لايدرون ماهي، ويتطلعون إلى جدران عليها آثار كشط وحك، وفجأة تغير كل شيء كأنما سقط ضوءٌ على المشهد كله، على الأطفالِ وعالمةِ الآثار وهذه المغارة والاسم المألوف: يسرى.
بدأ كلُّ شيء في مكتبة باريس الوطنية مع اكتشاف يوميات وأوراق غرود ومئات الصور في صندوق منسيّ في زاوية من زوايا المكتبة. كانت الاشاعة المتداولة أنها أحرقتْ كل ما دونت ْ وصوّرت ْ، ولذا بدا الاكتشافُ مثيراً ومذهلا. عادتْ غرود إلى الحياة مرة أخرى. دخلت ْ مجدداً إلى حكايتي لتعرّفني على يسرى وهذا الطفل، وهذه الظلال، واتخذ كلُّ هذا الانتشاء الظاهرعلى وجه الفلاحةِ الضاحكة وعالمة الآثار وحضورالطفل الصامت طريقه إلى الكرمل وإلى حكايتي.
كل شيء كان حقيقيا إذن، تلك المغارة الغامضة، وهذه الجدران، وهذه الفلاحة التي بدأ اسمها يلحّ عليّ كما لو أنها تتطلع إليّ ضارعة أن أنقذها من طريق اتخذتهُ ومحا ضحكتها وشنتيانها وطفلها.
أين هي الان؟ ومن كان ذلك الطفل؟ لأمّي الملامح ذاتها، والملابس ذاتها، والضحكة نفسها، ولي هذه النظرة الساهمة في الوجوه الغريبة، ولنا هذه القرية التي يؤكد الشيخ حمزة، العجوز اللاجيء في مخيم البقعة، أن لاأحدَ يصاب بالمرض فيها بفضل أعشابها، ولنا تلك الأمّ التي أصرّت حين جاؤا إليها بوحيدها قتيلا برصاص الانجليز في واقعة أم الدرج أن تصمده في البيت كما يُصمد العريس في ليلة دخلته وأن تغني له، وتغني حتى طلوع الشمس.

*   *   *

في أوراق دوروثي غرود أجدُ هذه الملحوظة:
" انتشر رعبٌ كبير آنذاك بسبب نبوءات تحدثت عن سقوط أمطارٍ غزيرة مفاجئة وزلازل ونهاية قريبة للعالم.."

ومن مكانه في جنين، كما حدثني بعد أن بلغ التسعين من عمره، كان مدرس التاريخ الشاب نيقولا زيادة يستمع إلى جارته تحدثه عن اقتراب الساعة، إلا أن أكثر ما كان يقلقها مع اقتراب النهاية هو مصير فستانها الجديد، ومن سيرتديه بعدها!

وضحك الشيخ التسعيني متذكراً أياماً تزداد عذوبة كلما أوغلَ في غاباتها، والتقى بنفسه هناك واقفا عند منحدر أو نهر أو سائراً ذات خريف على طريق ترابي تتطاير حوله العصافير.

ولكن الشيخ حمزة كان يفكر آنذاك بنبوءات أخرى كما عرفتُ من أمي:

"هذا الوادي سيمتليء بالشجر في غيابنا، وهؤلاء الصغار سيتولاهم الله برحمته، أما نحن الآخذين بأطراف السناسل، والقابضين على بنادقنا الايطالية الخربة، والرابضين في حبات الجوز، والعائدين من حيفا بخبر سقوطها، والمشرّقين في مابعد إلى حيث لايعلم إلا الله، فلن نعود إلا إذا وضع العربُ يدهم بيد المسكوف. متى؟ بعد سبع... أوسبع...أو سبع هكذا جاء في الكتب..والله أعلم"

في ذلك النهار، نهار هذه اللحظات التي تأخذ فيها الفلاحاتُ أطفالهن إلى مغارة الطابون، أو يفئن إلى جدرانِ هذه الأكواخ الطينية والخيام المسماة قلاع التبن، كان الفريق النسائي ينتظر الزائرة صاحبة القبعة العريضة، الآنسة ولز، الفضولية والثرية، والتي ستهدي الفريق 25 جنيها استرلينيا مساهمة منها في اكتشاف كيف كان إنسان العصور الحجرية يتناول طعامه ويحلم...والأهم كيف يتزاوج.

وتهرع غرودُ لاستقبالها غيرعابئةٍ بنظرة القبعة المندهشة إلى ما حولها، وتقودها مبتسمةً إلى كوخها، أو إلى إحدى قلاع التبن بعد أن تحوّلتْ كلمةُ طابون إلى تبنٍ في اللغة الانجليزية. وستنتقل هذه التسمية إلى أوراقِ ويوميات ورسائل وأحاديث رفيقات غرود، من دون أن يفهمن أن الطابون الفلسطيني الذي نتحدث عن خبزه الساخن المغموس بالزيت، لاصلة له بالتبن الذي خلطنه بالطين وبنين به قلاعهن. وسأعرفُ في ما بعد أن الحديث يدور هنا عن أرضٍ منبسطة تجاور جبلا غائراً في الزمن حتى 600 ألف عام تارة، أو طالعا ً منه حتى أواسط القرن العشرين تارة أخرى ما أن تمر بجواره الشاحنات الانجليزية ويتطلع إليه جنودها كمن يتطلع إلى شبح مهدد.

الفلاحاتُ يمنحن السيدة القبعة بلمحة عاجلة إحساسَ مستكشف، ونظرة طائرٍ يحلّق في سمائه. لن تتحدثْ إليهن بالطبع، إذ يبدو أنهن كائنات لم تصل إلى عصرالأبجدية بعد. ربما تعرف صديقتها غرود ما يدور في هذه الرؤوس المغطاة بمناديل بيضاء ثقيلة، وما تشير إليه هذه الثياب المطرزة بأشرطة من النقوش والفراشات وعروق النبات وأوراقه، وهذا الزنّار الملتف حول خصور الشابات والمكتهلات على حد سواء، ولكن الأكثر أهمية أخبار هذه القبائل ذات الجباه المنخفضة والفكوك البارزة، والأفخاذ الصلبة، تلك التي تقول غرود أنها عاشت في هذه الكهوف في أزمان لايعرف إلا الشيطان مداها، ولن يخطر ببالٍ عاقل أن لهذه العيون الشابة المحدقة بها على استحياء، أوهذه الابتسامات المطمئنة والساخرة، أو هذه البلاهة المطلقة، وهذا الطفل اللاهي تحت أقدام أمه، علاقة بهذه الفؤوس المتناثرة وكسر الفخار والعظام الثمينة.

"ياللهول عزيزتي غرود...أنت مدهشة...أين عثرتِ على كل هذا؟ ألم يمسك بكِ أحدهم وأنتِ تنقبين عن عظامه؟ "

تبتسم غرود، ومن وراء نظارتها الطبية يتألق فرحٌ خجول، تتمتم كأنها تتفحص رؤيا غائبة:

"هو الذي عثر عليّ كما يبدو، نحن نذهب إلى حكايةٍ، ندخل فيها، نجد أنفسنا في ضيافة أناس غرباء يتدفأون حول نار، أو يكشطون الجلود، أو يغنون لأطفالهم، أو يحفرون لأنفسهم أسرة للنوم. نحن نصغي فقط، وعندها لا يعودون غرباءَ أبداً. حين يرحب بي أمواتهم وأحياؤهم، تمتد الحكاية، تصبح حكايتنا أيضاً"

"أوه..أنتِ لستِ في اليونان ولا في فرنسا ولا في مرتفعات انجلترا حتى، أنت في أزمان خارج الزمن، بين أناس خارج الجغرافية. هل تعلمتِ لغة هؤلاء؟ كيف تتفاهمين مع هؤلاء البدائيين؟ أشعر في كل لحظة أنهم يهمون بالتهامي!"

وأشارت القبعة بيدها إلى الباب المفتوح، إلى الفلاحات المشغولات بالثرثرة أو الصياح تحت الظلال، أصوات لايصل إليها منها إلا ما يصل من نداءاتِ البط البري فوق غابات رتشموند أو نقيق الضفادع في بركة بيتها الريفي، وضحكتْ:

"لاعليكِ..أنا أمزح فقط"

*   *   *

على مقربة من الأرض المنبسطة وقلاع التبنيات التي اختفت ْ الان، إذا اتخذتَ طريقكَ صاعداً بين الأحراش الجبلية، وخلفت الكهوفَ التي عادت إلى سكونها منذ زمن بعيد، ستجد هناك أربعة صعاليك، أو هكذا أطلقوا على أنفسهم، يفترشون الأرضَ تحت سماءٍ منذرة بمطر غزير. جاب هؤلاء الأربعة الأرض في شهر آذار كما روى سعود الأسدي، وتنقلوا من واد إلى سهل ومن سهل إلى واد، متقمصين أرواح صعاليك جاهليين، وحين وصلوا إلى أحراش أم الزينات جمعوا كمية من أوراق نبات اللوف اللاذع تكفي لطبخةٍ واحدة، وبعض من نبات الفطر، وإضمامة هليون كبيرة تكفي لإطعام أربعة أيتام. وفجأة أبرقت السماء وأرعدت، وزخ مطر غزير، فقال كبيرالاربعة نواف عبد قبل أن تصيبه الجلطة الدماغية بسنوات:

"دعوني..سأذرع الحرشَ حافياً وفاءً لنذر قطعته على نفسي لكاتبنا محمد ابن أم الزينات"

وانطلقَ حافي القدمين بين الأشجار متخبطاً بالوحول والمطرإلى أن غاب عن النظر.

لم تتوقف الحكاية عند هذا الحد، فقد وصل نوافُ إلى حدود الدالية كما قيل لي، وعاد لاهثا وممطرا ومبتهجا، ولمّ حطباً وأوقد ناراً، وبدأ بقلي البيض بالهليون المحيوس بزيت الزيتون في تجويف تحت صخرة عظيمة، وبدت وجوهُ الأربعة حول النار قريبة الشبه بوجوه الرعاة الذين صادفتهم غرود ذات يوم في جولاتها، وتوقفت لتسألهم عن اسم هذا المكان، فقال كبيرهم، هذه هي الروحة، وهناك أشجار الأرملة الباكية، أما هذه البلاطات فهي بلاطات الشقاق.

لهذا السبب وبتأثير هذا المشهد ربما، وما أن وصلت إلى قلاعها، أخرجت غرود دفتر يومياتها وكتبت وهي تجمع شتات الأمكنة التي زحفت في كهوفها:

".. هنا أيضاً تجدين نفسكِ أمام مشاهد برية غامضة يلفها ضوء لبنيٌّ تخلف بعد سقوط الأمطار، ويتراءى لكِ في آخرها، وبعد أن تكوني تنقلتِ من صخرة إلى أخرى، رجلٌ ذو لحية بيضاء، كاهنٌ ربما، وبلاطاتٌ عليها نقوش وأسماء، وتسمعين صوت موسيقى تجيء من مكان غير منظور، وحين تسألين، يتحفك الرعاةُ بحكاية عن كل بلاطة وشجرة ومنعطف..يبدو أن الناس هنا لم يتركوا شيئا بلا تسمية..إنهم يربّون حتى الحجارة كما يربّون أبناءهم"

وأعادتني هذه العبارات إلى ملحوظة أخرى كتبتها بعد استكشافها للكهوف الفرنسية:
"..هنا تزحفين على بطنكِ ساعة بعد أخرى، وتشرفين على حافات خطرة لايضيئها سوى مصباح الأستلين، وتضرب رأسكِ صخورٌ بارزة متدلية، وتضرب قدميكِ صخورٌ ناتئة من الأرض، وتصلين أخيراً إلى عجائب متنوعة؛ كتلة من الطين على هيئة ثور البيزون، وصور سحرة مقنعين راقصين على جدار، وآثار أقدام إنسان من العصر المجدليني.يخيل اليك أنه غادر لتوه"
وقال نواف، بعد أن لاحظ خفوت صوت قطرات المطر الذي يسبق السكون:
"علينا أن لانغادر قبل أن نضيف إلى ذاكرة أشجار أم الزينات أسماء أبنائها الضائعين تحت سماء الله الواسعة. هذه سروة صديقي محمد، وتلك زيتونة أستاذي صالح برانسي، ولابد أن تحمل أجمة الصبار إسم غسان كنفاني"
وأرهف الأربعة أسماعهم كأن فاردةً تحل بالمكان فتترك الخيولَ والجمالَ جانبا، ويتوزع أصحابها في دائرة، و تتوافد جوقة عازفين تتخذ أمكنتها بين الأشجاروحجارة البيوت المهدمة وقد غطّاها البلاّنُ وتسلقت أطرافها أزهارُ الخرفيش.

*　　　*　　　*

كروم الحرادنة، نسبة إلى عائلتي، أو هذه الأحراش، لاتذكر إلا ويتبعها المتذكرُ برنة اندهاش محاولا تمثيل اتساعها بما لاتدرك أعداده ولا مداه، ولكن ابنة عمي خالد تقول لي عبر الهاتف، ولا أشك أنها تتطلع في تلك اللحظة من باب بيتها في الدالية جنوبا إلى كرومنا:
"هل تذكرها؟ كانت تمتد بنا في كل الاتجاهات، حتى مشارف الدالية"
وأسألُ:
"من يجدّها الان؟ أما زالتْ تحمل كما كانت؟"
"وأكثر، ولكن اليهود لايسمحون لنا، لايضمّنون زيتونها لأحد من أهل أم الزينات"
"من يأخذ زيتونها؟"
"يضمّنونها لغرباء، ليسوا من أهل بلدنا"
وتتبع هذا نهدةٌ يبدو أنها تثلم أوتار صوتها أكثر مما هي رفة جناح عابرٍ بين لحظة وأخرى، أو بين أوراق شجيرة من أشجارالزعرور.
وأقول مواسيا ربما، أو مصمما على إضافة حكاية أخرى إلى رصيدي من الحكايات:
"أتعرفين عائلة محمد أبو الهيجاء؟ هم يقيمون في أكواخ على التل الوسطاني منذ العام 1948، بالقرب منكم، ومع ذلك لايستطيعون وضع إصبع على طرف قريتهم عين حوض التي يرونها من مكانهم ذاك رؤيا العين. اسمعي هذه الطرفة من طرائف أبناء الشيطان هؤلاء الذين احتلوا بيوتها، وجعلوها مستعمرة فنانين، وحولوا مسجدها إلى مشرب ومطعم، والمقبرة إلى موقف سيارات؛ جاءهم أحد أبناء أبو الهيجاء راجياً بحق العشرة الطويلة، فهو من عمل مع إخوته على ترميم وتجديد بيوتهم التي احتلها الغرباء، أن يسمحوا له فقط بوضع سياج حول ما تبقى من قبور أسلافه، فثار

الخوف في نفوسهم، ورفضوا بشدة وعصبية. كانوا محتشدين بهؤلاء الناس غير المرئيين، أو الغائبين كما يسمونهم"

فاطمة لاتقرأ الكتب، وهي لاتعرف بالطبع بقية الحكاية، فهي لم تكن هناك حين تجمّع الفنانون واستولى كل واحد منهم على تحفة معمارية من تحف عين حوض، ولم أكن أنا هناك ولا أحد من أهلي، ولكن ديفيد غروسمان الروائي الصهيوني المصاب بالقلق كان هناك، وسأل فنانا نحيلا جاحظ العينين تجعدت رقبته حتى عادت كرقبة دجاجة مكتهلة:

" لماذا رفضتم؟ هل ينتقص سياج مقبرة من فنونكم العظيمة؟ هل يخرجكم من هذا المكان إلى المكان الذين جئتم منه؟ هل ما زلتم تخشون أشباح موتاهم؟"

فرد الفنان المتشبث بكرسيه الهزاز:

"لا..لم نعد نخشى الأشباح..ولكن خوفنا هذه المرة من أنكَ إذا أعطيتهم بصمة إصبع هنا، فمعنى ذلك أنك تعترف فوراً بأن هناك نوعا، لا أدري ماهو، نوعا من الظلم حدث هنا، وحوّلهم إلى أناس سيىء الحظ اقتلعوا من أرضهم. إذا أخذوا هنا موقعاً، سياجاً أو جداراً، سيقوض هذا حقنا في المكان، في امتلاكه"

ميرون بنفنستي، بعد أن روى هذه الحادثة، أطلق على هذا الخوف لقب الخوف العقلاني، هو الذي تجاوز شيئا من خوفه ووظيفته في بلدية القدس، وأسس مركز أبحاث ليواجه الخوف بأعمدة اسمها، ما صار صار، وما فات فات، وكتب:

"تغير المشهد، وحتى مضافة آل ماضي في إجزم، لن تجد من يؤمن بيننا أن فلسطينيا بناها أو أقام فيها. هذه الأرض وأهلها في خريطة اليهود العقلية رقعة بيضاء إسمها مستعار. صحيح أن هذه البيوت العربية أنيقة وجميلة، ولكن الغرباء الذين حلوا فيها وسال لعابهم على عتباتها ومصاطبها الحجرية لايستطيعون تصديق أن سكانها السابقين امتلكوا ذوقا رفيع المستوى مثل هذا، وسيخترعون وعيونهم تتلصص قصصا عن أصلها ؛ سيقولون هي بالتأكيد بيوت وقلاع بناها الصليبيون، وإلا هل يمكن أن يبني غير المرئيين والغائبين هؤلاء بيوتا من هذا النوع؟"

حتى كروم الحرادنة إذن، لاوجود لها، ولكن لابأس أن يأكل زيتونها صندوق أراضي الدولة، فالمحصول هو الحقيقة الواقعية الوحيدة الملموسة، أما هذه السناسل، كما قيل لفرانسواز ذات يوم بلسان مرشد سياحي هاجر إلى فلسطيننا من اوكرانيا في الثمانينات:

"تناسلتْ مثلما تناسلت الصخور والوديان في هذه الأرض الخالية، وخلقها الله كما خلق كل شيء من أجل اليهود وكل من سيتهوّد في مقبل الايام"

و يومها قلت لفرانسواز:

"هل تظنين أن الله وكيل عقارات يعمل لدى هؤلاء الخائفين من رؤية وجوههم في المرآة؟ هم صنعوا أوهاما وعاشوا فيها، وأعطوا مخاوفهم عقلا، ولكن الحكاية لن تتوقف هنا كما تعرفين.."

فاطمة حقيقة تتناسل، هي وبناتها وأبناؤها الذين أدهشني عددهم، وسيتعرف عليها وعليهم الغازي في سعيه إلى حل ما بدا له ذات يوم لغزاً، آخذا معه روايتي، صاعدا جبل الكرمل ليسأل عن من يعرفني ويعرف أناس الحكاية، هؤلاء الذين يخشى زملاؤه في الصحيفة فهمهم، لأن الفهم يخرجهم من مستعمرة الفنانين ورامات غان وشارع جابوتنسكي. هل يخشون أن يجدوا أنفسهم في الحرش الذي ذرعه نواف مجرد متطفلين على مشهد عرسٍ لايشبه أعراسهم في بلغاريا أو بولندا، أوعلى مشارف عين حوض وهي تعج بأهلها؟ أو صامتين محدقين في هذا البحر الغريب؟.

*　　　*　　　*

حين وصلتُ إلى هذه اللحظة التي دخلتْ فيها يسرى وطفلها إلى حكايتي، حاولتُ استرجاع ملامحها من الصورة الوحيدة المنشورة في موقع باميلا سمث، من هذا الفضاء المسمى فضاء الانترنت، أو الكون الخيالي المنتشر فوق أو تحت أو حول أو في عالمنا الملموس بأناسه وأحجاره وغاباته وصحاريه، ومع ذلك لانراه عيانا وإن كنا نسمع به، فنكتفي بقراءته والدخول فيه أينما اتجهنا، حيث لا ملمسَ للأمكنة والأزمنة، بل لمتصلٍ غامض لايُرى يجمع بين ماض وحاضر وآتٍ في فضاء لافوق فيه ولاتحت ولا يمين ولاشمال.

هنا صورة يسرى، أعني أينما التفتَ، كما لو أنها لم تغادر، مثلما الطفولة التي مازلتُ أثق أنها ماثلة في فضاء ما أستطيع إيجاد طريقي إليها فورأن تلتمع علامة؛ كلمة أو صورة أو صوت أو مذاق خروب أو رائحة سرّيس بعد ليلة ممطرة.

هذه بوابات تصلنا بعوالم لانهائية تتراجع أمامها صورواقع يبدأ بالإختفاء وتبدأ بعدها قوة الروح بالإمتداد في حلم أبدي يمكن للزمن الآتي أن يجيء فيه ويكون لنا. صورة يسرى تقول لي هذا، أنا الذي لم أكن موجوداً حين بدأتْ تتعلم اكتشاف الشظايا وتجميعها، وها أنا اكتب لمن لم يوجدوا بعد لأقول لهم كل شيء، وأعيد خلق كل شيء.

هنا صورة باميلا أيضاً، باميلا الساهرة في مكان ما من هذا الفضاء ذاته، وهنا عنوان بريدها الذي يمكنه أن يصلكَ بها في أية لحظة كما لو أنها تقيم في غرفة مجاورة أو تقلب أوراقها بجوارك، أو تعد فنجان قهوتها في المطبخ المجاور.

أقدم نفسي لباميلا، وأقول وأنا أضرب على مفاتيح الحاسوب:

"سيدتي...إليكِ هذه المفاجأة؛ ربما يعني لك شيئاً أن غرود دخلت في رواية فلسطيني وهي تتنقل بين صيافير الكرمل قبل أن يولد بسنوات، ربما يعني لك شيئاً أن تعرفي أن رفيقتها يسرى الجالسة بجوارها تحت الظلال، ورفيقتها إلى عصورنا الحجرية، هي من أهالي قريتنا"

فتلتفت كما لو أنها تواصل حديثاً مألوفاً ولكن مع دهشة لاتخفى وتكتب:

"عزيزي..مرت عشر سنوات أو أكثر وأنا أبحث عن أقرباء يسرى! ولكن قيل لي أن كل القرى تم تدميرها وأنكم تشتتم. هل أنت متأكد أنك ربما عرفتها ؟ كيف تسنى لك أن تعرفها ؟ على أية حال.. ما تقوله مثير للإهتمام"

"لم أعرفها، بل التقطتها كما التقطتُ آخرين من ذاكرة أمي، أنا من أم الزينات على السفح الجنوبي للكرمل، تماما فوق مغارة الواد"

" سمعتُ عن قريتكَ بالطبع، كانت قريبة من إجزم، أليس كذلك؟ ودمرت في العام 1948، وُزرعت فوقها أشجار الصنوبر والسرو لإخفاء الدلائل على وجودها"

"صحيح...هذه القرى في منطقة واحدة"

" إليكَ رسالتي الجامعية، فقط لأن فيها المزيد من الصور، أرجوك ليس عليك أن تقرأها كلها، يكفي أن تقرأ الفصل الذي كتبته عن غرود، أنا متعبة هذه الليلة لأننا نعد لجنازة عالم آثار شهير كان صديقا وفياً لزوجي، ولإستقبال ضيوف من أفريقيا، ولن أستطيع مواصلة الكتابة طويلا في هذه الليلة"

"وهذه مفاجأة أيضاً..رسالتكِ الجامعية مفاجأة لم أتوقعها، ترميمٌ للذاكرة، أعني لذاكرتنا نحن الفلسطينيين، نعم، هذا هو المشهد قبل ميلادي، لدي الآن تفاصيل أكثر وصور حية وأناس يمكنني إعادتهم إلى الحياة"

وأواصل الكتابة، كما لو أنني لا أتحدثُ إلى باميلا وحدها بل إلى جمهور ينتظر:

"نحن كما تعرفين بحاجة إلى قدرٍ كبير من الذكريات لنبق على صلة بمستقبلنا وماضينا. قرأتُ الفصل الذي أشرت إليه، ولكنني لاحظت هفوة بسيطة، أنت ترجمتِ "مغارة السخول" إلى "مغارة الأطفال الصغار"، بينما كلمة "السخول" تعني الماعز في اللغة العربية! هل رأيتِ صوراً حديثة لما يقارب 500 قرية مدمرة لم يتشتت سكانها في الحقيقة بل اقتلعوا وحرموا من ملكية أراضيهم؟ لديّ أقرباء مازالوا يعيشون على بعد ميل من أم الزينات، وما يزال الإسرائيليون يمنعونهم من العودة إليها، يسمونهم..غائبين"

وألحقُ صورتين بهذه الكلمات:

"هنا صورتان، الأولى لما تبدو صخوراً جاء بها من القمر رائدُ فضاء، بينما هي صورة بيت مدمر، والثانية لثلاثة أشخاص، إثنان ليسا من علماء آثار العصر الحجري بل لإسرائيليين من عصر حجري معاصر؛ المترجم وإلى جانبه ناشر روايتي في العبرية، الشخص الثالث قريب لي يقودهما إلى مكان ميلادي، أصرّالإثنان على رؤية المكان الحقيقي حيث حدث كل شيء، وحيث يدعي الكاتب أنه ما زال يسمع أصوات الصمت"

وتعود باميلا إلى الكتابة:

"مرة أخرى، مازلتُ أعمل والوقت تجاوز منتصف الليل، سأنظر في هذه الصور في مابعد، ولكن كلمة "أطفال صغار" تعني في الإنجليزية أيضا "صغار الماعز"، ألا تفي بالمعنى؟ لدي المزيد من الصور، ربما يمكنك المجيء إلى انجلترا، أين أنت؟..وأيضاً..ستبقى فلسطين، الناس يتجاوزون الإبادة ويعيشون، أنا رأيتُ كيف يتمكن الناس من البقاء وتجاوزالآم لا تصدق. هذا مدهش"

* * *

تحدثتْ غرود، كما تقول زميلتها في بعثة التنقيب جاكيتا هوكس، مع يسرى عن أخذها إلى اوكسفورد. لابد أن هذا حدث في تلك الظهيرة، أوخلال جولة بين أكوام التراب المتبقي من مناخل الفلاحات، أو تحت ضياء سراج تحمله يسرى المنحنية بجانب غرود على تجويف غير طبيعي في أرضية الكهف، ولكنه حدث بالتأكيد كما تقول باميلا وهي تقلب يوميات تلك السنوات.

بعد عدة مواسم أصبحت يسرى خبيرةً في تمييز العظام، وفي التعرف على الثمار والبقايا الإنسانية والأدوات الحجرية. تعرّفت على سن قاد إلى اكتشاف جمجمة مهشمة، ورغم أن لاأحدَ يذكر أنها اكتشفت هيكل أنثى إنسان النياندرتال الشهير، جوهرة كشوفات غرود، إلا أنها هي من اكتشفه في مغارة الطابون في الطبقة الاولى، وتحولت إلى مسؤولة عن التقاط المواد قبل أن يصار إلى نخل التراب.

هل حلمتْ يسرى بالذهاب إلى كيمبرج مع المرأة الضئيلة الحجم التي ستصبح في مابعد أول استاذة لكرسي علم الآثار في الجامعة؟ وهل حدثتها هذه عن موسم الخريف الذهبي الذي يحوّل أوكسفورد إلى مدينة سحرية؟ حسب هوكس القابعة الان في بيتها الصغير على أطراف اوكسفورد تراقب طلبة من اوروبا الشرقية استأجروا غرفتين من غرف بيتها، امتلكت هذه الفلاحة الضاحكة قدراتٍ غير عادية بالفعل، وامتلكت حلماً، وكان يمكن أن تصبح زميلة في كلية نيوهام.

ولكن خريف غرود الذهبي المجهول لم يكن مغرياً كما يبدو، أو أن الفلاحة الفلسطينية فضّلت الإنطواء على حلمها ببلاد لم يكن لها موقع على خريطة قريتها المعزولة على أطراف الجبل. ولم يحتفظ الفريق النسائي الذي غادر مواقع الحفريات بعد سبعة مواسم إلا بصورة يسرى، واقفة، مودعة، تحتضن طفلها، والعرباتُ تحمل الصناديق والخيام والفؤوس، وتلوّح القبعاتُ والنظاراتُ الطبية وهي تنحدر على طريق حيفا.
أتساءل الآن:
" أين ذهبت يسرى ؟ "
كما لو أنني لاأعرف أخبار الطوفان الذي اجتاح سكان حبات الجوز، ولا هذا الشتات المحتوم الذي فقد فيه أخي آثار أهله في تلك الليلة حين عاد هابطاً إلى الوادي فوجد البيت خالياً، والذي دخل فيه الضابط يهودا من مستعمرة يكنعام بجنوده بيت الحاج عبد الغني، فقال لهم، تفضلوا، فسألوه ماذا تفعل هنا ؟ فقال هذا بيتي..تفضلوا واشربوا قهوة، فتفضلوا وشربوا قهوة وقتلوه، وكأنني لاأعرف أنهم خرجوا ودخلوا بيت الشيخ يوسف فوجدوا شاباً، ففتشوه وأخرجوه من البيت إلى الزيتون وهناك قتلوه، ويقال أنهم ذبحوه بالسكين. كل هذا أعرفه، وأعرف أن خمسة رجال مع زوجاتهم، في تلك الليلة التي تناثر فيها أهل أم الزينات لأول مرة منذ أن خلق الكون بين الدالية وعارة وأم الفحم، طوقهم جنود يكنعام عند بيادر خبيزة، وانتزعوا من زنار بنت المختار ألف جنيه فلسطيني، وأوقفوهم صفا واحداً واطلقوا عليهم الرصاص.
باميلا لاتعرف شيئاً من كل هذا، ربما هي تعرف ماقيل لها:
"قيل لي أنكم تشتتم!"
وهذا هو ماعرفه الأفريقي في مومباسا أو العربي في بغداد أو الهندي في كراتشي، صورة غائمة سُحبت منها ملامحُ الحسرات الانسانية وذعر ويأس عيون الفلاحين الفلسطينيين الذين فاجأتهم هذه الضباع المسلحة وأنشبت فيهم مخالبها.
غرود لم تعد تهتم حتى بأوراق يومياتها بعد أن غادرتْ، ولا تردّدت في قاعة محاضراتها كما يبدو أصوات الفلاحات الفلسطينيات اللواتي غنين في فترات الاستراحة للتراب المنخول وكسر الفخار وغوامض في الروح لايفهمها سواهن، ولا ألمّ بها حلمُ يسرى بالرحيل إلى أوكسفورد.
بالتأكيد لم تعد أنداء الكرمل تتساقط في خيالها مثلما ظلت تتساقط في خيال عجوز مخيم البقعة حين تحدث عن الأم الفلسطينية التي صمدت إبنها القتيل في البيت مثلما يُصمد العريس وظلت تغني له حتى طلوع الشمس.
وفق رواية الشيخ حمزة، كان اسم هذه الأم يسرى أيضاً. هل هي يسرى ذاتها، يسرى العصر الحجري؟ وهل طفلها ذاك الذي داعبته غرود هو نفسه العريس القتيل؟ لا أدري، ولن يدر أحد إلا اللهم هذه الظلال الصامتة والنسائم العابرة فوق أشجار الزيتون.

جبـينة

ذات ليلة شتائية في ستراسبورغ الفرنسية، في الفندق الصغير الشبيه ببيت دمية، ثم في مسرح الإلياد بجمهوره الغامض المنتظر، ظهرت أمامي هذه العبارة:
"الحكايات موجودة، ولكن علينا أن نجد طريقنا إليها"
لا أدري من قالها أو كتبها، ولا من نقلها على ورقة من أوراق موظفة الاستقبال الخاصة بتسجيل موعد أو رقم هاتف أو تذكيرها بأن أحدهم يود الاستيقاظ باكراً ليلحق بالطائرة.
لم يمض على وصولي إلى هذا الفندق سوى ليلتين، وما زالت ملامح روث الصغيرة الحجم التي استقبلتني تترجرج على ماء الذاكرة، ومعها وجوه القادمين من أماكن مختلفة في هذا العالم الذي يتضاءل حين نلتقي، أي لم يستقر شيء بعد يماثل استقرار وهدوء هذه العبارة المنتزعة كما تخيلتُ من روح مطمئنة على شيء من القلق، أو مسرعة بتمهل كما قال أحد نساك كتاب التغيرات الصيني ونقل عنه المتنسك الإيطالي كالفينو بعد جولان يائس تحت السماوات.
قد تكون عبارة ألقاها عابرٌ في رواية أو قصيدة وتسللتْ إلى ذهني وأنا أبدأ أمسيتي الأولى وحيداً في مطعم الفندق أمام كأس نبيذ وصبية من مدرسة ثانوية تعمل لساعات معدودة ثم تغادر بعد قليل، فسجّلتها مفكراً آنذاك بظلال كلمات تنبسط بلا توقف وتحيط بأماكن تمنيتُ ارتيادها، وليالٍ وددت ُ لو سهرتها، ووجوه أحببتُ أن أبقيها نابضة ومألوفة.
قد تكون عبارة اختلقتها وأنا على حافة ستراسبورغ، ثم وأنا أهبط من الحافلة، ثم وأنا التقي بوجوه مبتسمة كأنها تقول لي، ها نحن نلتقي أخيراً، فكتبتها تعبيراً عن ثقتي بأن العالم سيكون مألوفاً في أي غابة نمضي إليها، أو في أي مدينة نهبط وحيدين من محطة قطارها إلى شوارعها المشمسة.
وفكرتُ: ماذا لو اتخذ جمهور المسرح المنتظر طريقه أيضاً إلى حكايتي مثلما فعل أكثر من قاريء؟ وماذا لو كنتُ أول فلسطيني يفاجئه بحكاية جبينة الأثيرة عند أمي وأخواتي؟.
وأنا أصل إلى كتابة هذا التساؤل الأخيرعلى الورق، وذاكرتي تواصل التغلغل في ذلك الفضاء الفرنسي، يدخل الزميل الذي أحتل ُ طاولته كالخارج من لوحة في جدار، فيتضاحك حين يشاهدني، ويبدأ بجمع أوراقي المتناثرة بين يديه ويحملها بعيدا: "ياأخي..أنت دائما تستولي على مكتبي..".
لم أفعل شيئا، لم أقل كلمة. كنتُ هناك أواصل الكتابة وفي سمعي تتردد أغنياتُ سافو المغربية اليهودية في ذلك المسرح. والتمعتْ في ذهني الصامت فكرتي عن مخربي الحضارات، هؤلاء البداة الذين يقبعون في صحاريهم، ثم ينقضون بين قرن وآخرعلى قافلة بابلية أو فارسية أو عباسية أو عثمانية، ثم يعودون إلى فيافيهم بالغنائم، والغنائم فقط. زميلي هذا كان مخرباً مثلهم، ولكن للمخيلة هذه المرة، ولهذا الفضاء الجميل الذي تتناثر فيه الأمكنة والأزمنة، فتقرأها كما شئتَ بحرية بالغة، لا الأمسَ فيها ولا اليوم ولا الغد، بل الأصوات كلها، وفرقة العازفين كلها.
هذا أحد البداة العابرين الذين يفاجئون المخيلة ويقطعون عليها الطريق، تماماً مثلما فعل ذلك العابر في مسرح الإلياد الذي كنت أقترب منه، حين قطع الطريق على جبينة العائدة كما سنرى بعد قليل.
لم يكن تساؤلي إن كنتُ سآتي بجبينة إلى الجمهور الفرنسي أم لا، بل كان عن الطرقات التي سيتخذها هذا الجمهور إلى حكايتها.
جبينة خارج الزمن، أي خارج الذبول والموت، نسيتْ أن تكبر، ونسينا أيضاً، فالأطفال مثلما الأوطان لايكبرون في القصص، وما زلتُ أراها تتحرك في أول حلم أبديّ منحته أمي لنا نحن الصغار المتجمعين حولها، وها أنا آخذها معي متذكراً يسرى التي لم تجد أحدا يأخذها من غيابها العميق، حتى بين اللواتي ضحكن معها، وقادتهن إلى عصور أجدادها مندهشة مثلما اندهشن، وفرحة بالاكتشاف مثلما فرحن. يسرى لم تتحول إلى أسطورة أو طقس ولذا لم ترحل طويلا في حياة طفل من أطفالنا، وحتى لو ظهرت أمام جمهور أوكسفورد، كما أتخيل، لذابت مثل ظلّ في عتمة تلك البلدة

ولغتها الانجليزية، وسيتحول الخريف الذهبي كلما جاء إلى ظهيراتٍ تأخذها إلى ظل شجرة لااسم لها، وهناك تغني بينها وبين نفسها أغنيتها وهي تنظر إلى الحمائم العائدة إلى أعشاشها.

*　　　*　　　*

حين جاءتني الدعوة إلى هذا المهرجان، مهرجان بلدان المتوسط، ظننتُ أن مكانه سيكون سالسبورغ النمساوية، فهي الوحيدة التي تجاور مهرجان الموسيقى السنوي في مخيلتي، وذلك المشهد الباذخ لكارايان وهو يقود فرقة من ستمائة عازف، وهي الوحيدة التي تجاور قاعات تعزف فيها الفالسات الساحرة منذ قرون، حتى ليظن الإنسان أنها تعزف في كل زاوية من زوايا هذه المدينة كلما ذكر اسمها، ووجدت في كل هذا أمراً قدرياً غامضاً يشبه وصولنا إلى قصر أو منعطف أو حديقة فنكتشف إننا رأيناه في أحلامنا، أو عشناه بطريقة ما وإن كان لاسبيل إليه.
كل هذا تبدد حين عرفتُ أن المقصود هو ستراسبورغ، ويقال أنها فرنسية. وحل محل قاعات الفالس اسم مبهم لايبرز منه شيء محدّد، لاشارع، لانهار مألوف، لامبنى لا سماء، ولا موسيقى. عليّ أن أبدأ إذن مثلما بدأ الانسان الأول، من كومة أحجار، وشظية هنا أو شظية هناك.
صحيح أن يوسف الغازي سيكون هناك، وستكون فرانسواز اللذان يعرفان جيداً أطفال الندى، وستكون روايتي حاضرة، ومعها حوارنا الطويل في جنت البلجيكية، وسيكون بامكاني أن أكون مأهولا كما أشاء بأهلي وأصدقائي، من غادر عالمنا ومن مازال ضائعا تحت هذه السماء ذاتها، ولكن من يضمن أن ليس في الأمر استدراجاً إلى مكان تنفرد بي فيه مجموعة قتلة غامضة تؤدي مهمتها بسهولة وترحل بهدوء؟ .
حين وصلتُ قبل سنة إلى باريس من أجل الحوار المشترك، حذرني يوسف من البوح بمكان وجودنا إلى أي أحد كان، ربما خشية أن يحدث ما يعرقل مشروعنا، أو خشية أن نجد أنفسنا في غرفة تحقيق في المطار يستجوبنا ضابط بقميص ذي أردان قصيرة ووجه خلندٍ بليد، يريد أن يعرف شيئا واحداً: لماذا نحن هنا. بالطبع قد يكون مضحكاً، ومن غير المعقول أن يسألني عن حكاية أطفال الندى، فهم كما أعرف لايهتمون بالحكايات، بل بالناس إذا خرجوا منها، بخالي العنيد الذي لازال يتوشح بأحزمة الرصاص، أو بأحفاده الذين يركضون الان وراء الدبابات الاسرائيلية، لا ليفجروها بالطبع، فهذا سيحدث في زمن آخر، بل ليرموها بالحجارة، ويرموا معها خوفهم وخوف آبائهم الذي شدّه على ظهورهم مثل أكياس تراب ثقيلة ملكٌ بطين قابع في قصره شرقي النهر منذ سنوات طويلة.
يخيل لي أنني إنسان حجري، أي إنسان أول، يجيء إلى هذه المدينة ببراءة غير معهودة، وستنقذني براءتي حتما. أنا أحمل نيات طيبة، تجولتُ في العالم كثيراً من دون أن أدري، حتى أنني فوجئت ذات ليلة في أحد مقاهي بيروجيا الايطالية حين أكد لي رجل بلغ به السكر حداً لامثيل له من الصفاء والتركيز، أنني لابد جرّبت الكثير، واختبرت الحياة كمن عاش سنوات أجيال عديدة من البشر دفعة واحدة.
لم أكن أعرف هذا ولا رأيت هذه الرؤيا، إلى أن جاء يوم وضعتُ يدي عليها كمن استيقظ على نفسه ماثلة أمامه، كأنه يراها لأول مرة. طلب مني زميل في الصحيفة مجموعة روايات، إن كان لدي شيء منها، فذهبت إلى مكتبتي البيتية، وبدأت التقط رواية من هنا ورواية من هناك، وقبل أن أسلمه أياها وضعت قائمة بعناوينها، لاتتجاوز السطور العشرة، ومع ذلك انتبهت من دون توقع إلى أن

العناوين العشرة تحولت إلى بلاد واسعة شبيهة بالبلاد التي تذكر عادة في الف ليلة وليلة، فلا يعرف السامع لها مكانا محدداً، ولا في أي اتجاه يسيرإليها، ومع ذلك يشعر شعورا طاغيا أنها بلاد تأخذ بالإتساع ؛ مدن وقرى وأناس وجبال وأنهارٌ وسماوات ولغات تتنوع كلما أوغلَ فيها.
هنا غابات أميركا اللاتينية، وهنا أشجار البتولا الروسية الصامتة على حافة النهرالمتجمد، وهنا كيرالا الهندية ومعبد النخيل والآلهة الحجرية، وهنا المرتفعات الانجليزية والمستنقعات المعتمة، وهنا عيد أزهار الكرز في إيدو اليابانية، وهنا الأفارقة الساهرين مع جندي عجوز منهم أعطاه الفرنسيون وساماً.
هل كنتُ أرحل في كل هذا من دون أن أدري؟ وهل هذا هو ما لمسه ذلك السكير الايطالي؟. يبدو أنني أكثر براءة من إنسان حجري. هذه براءة نهر يتدفق بلا ذاكرة، وإن ذكره أحد بالبلاد التي مر بها والصحاري التي اخترقها والسهول التي تساقطت عليه أمطارها، أصابته الدهشة، ولكنها دهشة لاتلبث أن تتلاشى عند أول انعطافة.
هناك أغنية، هي أغنيتنا أيضاً، كما روت دونا زوهارالهاربة من أمريكا الستينات، على كل واحد منا أن يغنيها، تماما مثلما فعل ذلك المغني الجورجي حين غنىّ في مسرح، فأصبح المسرح حياً. لم يكن الصوتُ يصدر من حنجرته بل من مكان بعيد، أبعد من ماضي جورجيا نفسه، من مكان ما في بحيرة تحت وعينا الإنساني، بحيرة مشتركة، يتصاعد ويصل إلى شوارع وساحات وأحلام أناس جورجيا ومآسيها الراهنة، فتعود الحياة إلى الفرقة الموسيقية المحبطة وإلى الجمهور وإلى كل زاوية من زوايا المسرح تتخللها العتمة. كان ذلك الصوت مفعماً بالروح وهي تعمل وتنبعث من الأعماق، وتأخذ الحاضر إلى سياق أوسع وأغنى. علينا أن نكتشف الطبقة الأعمق من أنفسنا ونصعد من هناك بأغنيتنا الفريدة.
يخشى يوسف عليّ من هذه البراءة، وأتذكر تحذيره وأنا أعد حقيبتي، وأتردد ثم أبقيها مفتوحة إلى أن أهاتفه قبل أن أغادر بدقائق.
هذه سهولٌ وغابات أخرى، تمتد من فرانكفورت إلى ستراسبورغ، تتخللها العتمة تحت سماء كابية تمتد ما امتد الطريق أمام الحافلة، وما امتدت أشجار الصنوبرعلى الجانبين. مشهدٌ جغرافي لاعلامة فيه تقود إليّ، وأناس يرفعون أكوام القش في سهل حصدوه حديثا في غياب مطلق عن وجودي، أو حتى مروري، لاتفصلني عنهم المسافات بل غياب أي اسم هنا يشير إلي، أو إلى أنني كنت يوماً هنا أو سأكون.

* * *

رأيتُ في ما يرى الرائي يسرى تغني، مرة في بيتها أمام وحيدها، ومرة تحت ظلال شجرة انجليزية، ورأيت جبينة أيضاً، راعية الأغنام، تحت الدالية في تلك الظهيرة التي لاتزول من الذاكرة، ورأيتني أجد لي طريقاً في أحراش أم الزينات وأراقب الصعاليك الأربعة المتجمعين حول النار، وأنظر بعيداً متوقعاً في كل لحظة أن يظهر مندفعا بين الأشجار ذلك الجندي التركي العائد إلى بيته المحطم بعد أن انتهت الحرب التركية - الروسية، أو يتقدم بخطا حذرة الشيخ حمزة ويختلط بالجالسين حول النار. هل هؤلاء أناس لامرئيون في المشهد؟ مثلهم مثل مئات قرانا المدمرة، لاشيء سوى أجمات الصبارالعنيد، النصب الصامتة الوحيدة كما يقول إيتان برونشتاين صاحب موقع ذاكرات؟.

أقول للجمهور المنتظر في مسرح الإلياد، والمترجم المغربي حسن الحبشي إلى جانبي ينقل كلماتي إلى لغة لاأفهمها:

"كنت أتمنى لو أنني أجيد الفرنسية، بل وكل لغات العالم لأقول حكايتي في كل اللغات، ولكن عربيتي أيضاً جميلة وتستحق أن تسمع ولو أصواتاً. نحن لسنا غائبين ولا أجمات صبار صامتة إلا لمن لايعرف العربية. سأروي لكم ما حيّر باحثا في الآثار حين فاجأه الصمتُ أمام توابيت أجدادنا. قال مندهشا، هذه آثار صامتة لاتقول شيئاً مما ورد في توراتنا، فلا هي تتحدث عن ملوكنا، ولاتومىء إلى اغنياتنا. لم تكن الآثار صامتة بالطبع، بل كانت كذلك لأنها تنطق بلغة لايفهمها. وسيحدث الأمر نفسه مع صهيوني آخر يدعى آموس كينان، أدخل في روايته بمصادفة لايعرف تفسيرا لها فلسطينيا يدعى محمود ليرافقه في رحلة متخيلة، وفي لحظة من اللحظات، ربما حين أطل الاثنان على مرج بن عامر من أعالي الكرمل، بدأ محمود بالغناء. كانت الأغنية جميلة، ولكن ما حير كينان هو أنه لم يجد ذكراً له في أغنية محمود. ولم يجد تفسيرا، كما لم يجد تفسيرا لانجذابه إلى أغاني جدته البولندية وحبه لموسيقى شوبان وبرامز.

سأروي لكم قصة فلسطينية شعبية تبدد حيرة الروائي وعالم الآثار عن شابة اسمها جبينة، أي الشابة البالغة البياض، وستعرفون بعد قليل لماذا.."

لم تصدر عن الجمهور حركة أو إشارة. كنتُ على طرف المنصة وإلى يساري الغازي وفرانسواز ونبيل الحجار من جامعة ليل وأستاذ فرنسي ملتح قدمنا إلى الجمهور كمن ينظم أوتاراً بين يديه، ونحن نستعد للحديث عن كتابنا المشترك، أبعد من الجدران، وليد حوارات غابة جنت البلجيكية، فواصلتُ الحديث مثل من يضع علامات على طريق أو يلصق أسماء مدن وأماكن وجبال على خريطة بيضاء:

"نحن غائبون عن المشهد، لأن لاأحدَ روى قصتنا، وحين تُروى القصة كاملة كما روت جبينة قصتها، سيعرف الناس من نحن، وسنعود إلى أهلنا بالطبع كما عادت جبينة، والان اليكم القصة.."

* * *

"في قرية من قرانا غارقة في الزمن، قد تكون من قرى الجليل أو بيسان أو يافا،عاشت فتاة جميلة اسمها جبينة، أي شديدة البياض، طلبها ابن أمير للزواج. واستغرقت الموافقة استشارة الأم فالأب فالجد فالجدة فالعم فالخال. يجب أن يوافق الجميع لأن معنى الموافقة هو أن جميلة القرية سترحل إلى بلد آخر، ستغيب، وربما تغيب معها أشياء مثل شجر الزعرور البري أو اليمام الذي اعتاد الهديل على حافة السناسل، فحين يفترق الناس ينفصل جزءٌ من الذاكرة، ويذهب معهم حتى صفاءُ أمسيات عزيزة أو نهارات لانعرف لماذا أصبحت خالية فجأة. من يدري؟

تقول أمي، جاء أهل الأمير وطلبوا جبينة بفاردة كبيرة، واستعدوا للرحيل، فجهزتها أمها، وأعطتها خرزة زرقاء لتدافع عنها وتحميها، وأخذ العبيد بزمام الجمل الذي ركبته العروس جبينة. وفي منتصف الطريق، قالت العبدة لجبينة آمرةً انزلي، فنطقت الخرزة وصاحتْ بصوت مهدّد " قودي ياعبدة بنت سيدك ... قودي ".

هكذا قالتها أمي وهي تشدد على مقاطع الحروف كأنها تشارك أم جبينة خوفها، أو كأنها ترافق ابنتها وتحميها أيضاً. لم تكن تروي فقط بل تتقمص شخصيات روايتها، ونشاركها نحن الصغار، فتهيمن علينا المشاعر المتضاربة، فمرة تأخذ بألبابنا بهجة المشاهد إن كانت مما يفرح القلب، أو تصيبنا بالفزع مفازاتها الشاسعة إن كانت مما يقذفنا في مجاهلها.
وتواصل أمي حديثها، فترتعب العبدة وهي لاتدرك حتى من أين يأتي الصوت الآمروتواصل المسير. وفي الطريق عطشت جبينة، وقالت أريد أن اشرب، ونزلت من هودجها إلى بركة ماء على جانب الطريق، وهنا حدث ما لم تنتبه له وهي تعبّ الماء؛ سقطت الخرزة في مياه البركة. وعادت العبدة بعد أن انتصف الليل، وقادت الجمل خلسة بعيداً عن الفاردة، وقالت لجبينة، انزلي لأصعد مكانكِ .. أنا العروس وأنتِ العبدة.
صاحت الخرزة بصوت مخنوق من أعماق البركة من دون جدوى، كانت الفاردة قد أصبحت نائية، ولم يصل الصوت المخنوق إلى أسماع أحد. وهكذا أجبرت جبينة على النزول. لم تأخذ العبدة مكانها فقط، بل لطخت وجهها بالسواد وخلعت عنها ملابسها الزاهية وارتدتها، والبست جبينة ملابسها الرثة، ثم صبغت وجهها بالبياض لتخفي سواده. وهكذا صارت العبدة هي عروس الفاردة، وصارت جبينة هي العبدة التي تقود الجمل.
عند هذه الذروة تخلل صوت أمي شيء من الاشفاق على جبينة البريئة وهي تسير باكية بصمت وتقود نفسها إلى مصيرها الذي قررته لها العبدة. ثم استعاد صوتها حيويته.."
جمهور مسرح الإلياد يصغي لي ولأمي ونحن نصل إليه بلغته شيئا فشيئا، وبلغة أخرى تجاورها وتحاذر أن تسبقها.
".. بعد قليل وصلت الفاردة إلى بيت الأمير، واستقبلوها بالطبول والمزامير، ونزلت العروس العبدة وزفوها لإبن الامير، وأرسلو جبينة العبدة لترعى الماشية، فكانت في كل ظهيرة تأخذ الأغنام والماعز إلى المرعى، وهناك تلجأ إلى ظل كرمة عنب، وتغني أغنيتها التي لاتنسى، أغنية تخاطب فيها الطيور والأشجار والينابيع، وتطلب منها أن تخبر أهلها أن جبينة صارت راعية، ترعى الأغنام والماعز وتفيء إلى ظل الدالية. فتتوقف الماشية عن الرعي وتصغي، وتصغي الطيور وأوراق الدالية، وتسيل دموع جبينة، وتشاركها البكاء الكائناتُ الصاغية حولها.
ومضى الحال على هذا المنوال أياما وربما سنين، كما شعرتُ من الحسرة التي رافقت أغنية جبينة في صوت أمي وهي تغني أيضاً كأنما هي جبينة ذاتها، أو كأننا نحن الأغنام والطيور والماعز التي تصغي وتبكي لبكائها .
وأسأل، وماذا عن أهلها؟ ألم يعرفوا ما حدث لابنتهم؟ فتقول أمي، طبعاً، حين غابت جبينة، لاحظ أهلها أن مياه بئر الناطف بدأت تنشف، وأعشاب دالية الروحة يصيبها الذبول، والصغار من أمثالكم يخشون الذهاب إلى الوعر، بل وحتى سنابل القمح لم تعد تحمل مثلما كانت في موسم الحصاد، وبالكاد كان يمر الربيع أو يلحظ مروره أحد، فأحسوا أن شيئاً حدث لابنتهم، فأرسلوا رسلا في كل اتجاهٍ يسألون عنها، إلى أن لاحظ الأمير صاحب الماشية أمراً غريباً، وهو تزايد هزال قطيعه يوماً بعد يوم؛ يذهب القطيع كل يوم إلى المرعى ويعود أشد ضعفاً ً مما ذهب. وحيره الأمر، وتاقت نفسه الى معرفة السر، فقرر متابعة ومراقبة جبينة الراعية سراً لعله يعرف تفسيرا، فلحق بها ذات يوم، وهناك رآها تنفرد بنفسها تحت كرمة العنب، فتجيء إليها الماشية وتحيط بها، وتتوقف الطيور عن الحركة ما أن تبدأ جبينة بغناء أغنيتها، ثم ينخرط الجميع في البكاء. وهنا يعرف الأمير، ونعرف نحن، كما ستعرفون أنتم، أن هذه البنت ليست عبدة كما يبدو عليها، ونتجمع حولها، ونسألها عن اسمها وعن أهلها، فتقص علينا قصتها، منذ أن خرجت من الفاردة إلى أن ضاعت خرزتها الزرقاء، واستولت العبدة على جملها وثيابها وانتحلت شخصيتها"

*   *   *

في فندق الدمى، أو في الطريق إلى ستراسبورغ، أو وأنا أحمل حقيبتي، كان يمكنني سرد هذه الحكاية بيني وبين نفسي، وأقيم ذلك المسرح الخيالي المعتاد، وأتخيل ما أشاء من لغط سيدور بين الجمهور، ولكنني هنا في مكان حقيقي، مع أناس جاؤا ليستمعوا إلى طاولة حوار بالتأكيد، فتتجه أنظارهم وأسماعهم إلى خشبة مسرح راوية يقيمه فلسطيني قادم من مكان ما.
لاأعرف في تلك اللحظة وأنا أصل إلى أغنية جبينة، ثم إلى لحظة التنوير وإنقلاب الموقف، كم عدد الذين أصابتهم الدهشة أو الحيرة، وتساءلوا: ماذا أراد ان يقول هذا الرجل صاحب المسرحية ؟ وكم عدد الذين بدأوا يرددون بينهم وبين أنفسهم الأغنية نفسها، ويصعدون من تلك البحيرة المشتركة تحت وعينا، إلى الحاضر.
إلا أن شخصاً بين الحاضرين وقف في أقصى القاعة ما أن فُتح باب النقاش، وخاطبني بلهجة مألوفة سمعتها في طرقات الطفولة، وعلى ألسنة أهلي وأصدقائي، وفي كل مكان يجتمع فيه فلسطينيان، أعني أنها لهجة فلسطينية، ولكنها بدت لي غريبة في هذا المكان البعيد، والأشد غرابةً أن صاحبها كان يحتج بشدة على حكايتي، ويقول، لماذا تعيدنا إلى الماضي؟ ذلك زمن وانتهى، 1948 ولاجئون، نحن اليوم بين يدينا اتفاقيات اوسلو واتفاقية جنيف، نحن نريد أن نتطلع إلى المستقبل لا إلى الماضي.
طلبتُ من المترجم أن ينقل هذا الكلام إلى اللغة الفرنسية، أن يقول للجمهور أن هناك من يعترض على الفلسطيني إذا تذكر، أو روى حكاية ألمه، ومن يريد أن يصلبه على لوح اللحظة الراهنة. هناك فلسطيني يقطع الطريق على جبينة العائدة إلى أهلها.
قلتُ:
"مهلا ياسيد.."
لقب يعرف الغازي منذ أيام جنت البلجيكية أنني أستعمله حين أتخلى عن العلاقة الحميمة بالإنسان الذي أخاطبه.
"..لم نتحول إلى هنود حمربعد، لم يستكملوا إبادتنا بعد، مازلنا نعيش. لماذا تنكر علينا أن نتذكر حتى آلامنا؟ عن أية اوسلو تتحدث؟ وأية جنيف؟ هذه اتفاقيات لم تذكرني ولم يذكر أهلي فيها أحد، لم تتحدث عن إزالة المستعمرات التي التهمت أراضي فلسطين الشرقية، لم تتحدث عن قدسنا، ثم متى كان الحاضر شيئا آخر غير ماض وحاضر وشرفة على المستقبل؟ كيف لك أن تتطلع إلى المستقبل وأنت تجهل صورة الحاضر؟ إليك ياسيد هذه الصورة؛ لاجئون سرقت أرضهم ينتشرون على الخريطة، على مشارف حيفا والناصرة والقدس وجنين ونابلس وغزة، وفي الشتات على بعد أميال من زيتون بلادهم، ومستعمرات تقام، وجدار يتلوى وينهب المزيد من الأرض، وجيش مستعمرين يقتحم مخيماتنا بدباباته، إذا لم تأخذ هذه الصورة كلها في حسابك كيف يمكنك أن تجلس في مقعدك وتبتسم بسرور؟ نحن موجودون، إذن لنا الحق أن نتذكر ونغني أغنيتنا، ونقص حكايتنا تحت ظلال الأشجار وعلى منعطفات الطرق، وفي أي مكان نصل إليه. هل تريد أن تمحوني؟ "
لم أكن أتوقع أن تجد جبينة، هذا الحلم الأبدي الذي أورثتني إياه أمي الراوية، قاطع طريق في مسرح الإلياد، ويكون فلسطينيا أيضاً، يأخذها جانبا ويحاول أن يسلبها ثيابها وحليها ويلطخ وجهها بالسواد كما فعلت العبدة في الحكاية، ويرميها في مقلب نفايات في هذه المدينة الفرنسية النائية. لم أكن اتوقع أن يصمت أستاذ جامعة ليل الفلسطيني، ويتجاهل حتى سؤالي عن كتابنا. ولكنني كنت أتوقع، كما حدث فعلا، أن يصافحني الفرنسي الملتحي ويقول:

"أشكرك..على شجاعتك"
وتقول لي سافو المغربية اليهودية:
"قالوا لي أنك تكتب شعراً..هل لديك قصيدة؟..أنا أغني قصائد لشعراء كثيرين..رامبو وغيره"
وتتجمع حولي عائلة جزائرية ماخوذة بقصتي تقول:
"أنت ذكرتنا بحكاية مشابهة سمعناها من أمهاتنا"
ومن وراء كل هذا الحشد، ألمحُ قاطع الطريق يمر خارجا من بوابة المسرح ويتوارى وحيداً في ليل ستراسبورغ الغائم إلا من تلك الليلة.

يوسف يصعد الجبل

رأيتُ أهلَ أم الزينات يعودون وينتشرون بين أشجار الصنوبر والخروب وحجارة بيوتهم المتناثرة بين الأعشاب، وشعرتُ بظلال تلك الظهيرة ذاتها تلمسني مثلما رأيتها تلمس وجوه الجالسين أو الواقفين أو الجائلين تحت الأشجار. كان ذلك في نهار يوم من أيام آيار، أي بعد شهرين من اكتشافي أن طبعة من رواية أطفال الندى صدرت بالفرنسية التي لاأجيدها، ولا أستطيع حتى اليوم ترديد جملة واحدة منها كاملة بلا أخطاء.
كنتُ أتسلى بالبحث في شبكة الانترنت عن أي شيء يتعلق بي، فبعد أن صدرت موسوعة الادب الفلسطيني عن جامعة كولومبيا، وفيها قصائد وفصل من هذه الرواية، قدرتُ أن أمراً ما لابد سيحدث في ذاكرة الثقافة الانجليزية، فالاستاذ جاك كولم علق تعليقا عجيبا على إحدى قصائدي في الموسوعة، قال أنها لفتت نظره، وذكرته بنشيد الانشاد التوراتي، وفي كتاب المسافة بين آثار خطواتنا فوجئت بنعومي شهاب تأخذ إليها أغنية قديمة لي عن الأشياء التي يرنّ وتر واحد حين نتذكرها، وعن المرأة التي تعزف وحدها على كل الاوتار. وهاهو اسمي يظهرمثل لغز وسط سطور فرنسية على شاشة الحاسوب.
في ذلك النهار، لستُ أنا من قرأ قصة هؤلاء الأطفال في الفرنسية، ثم صعد بي وبها إلى جبل الكرمل، بل مصري يهودي هاجر إلى فلسطين في الخمسينات، أي في وقت كنا نغادر فيه معسكر الشعيبة العراقي جنوب البصرة، ونؤخذ بالشاحنات أيضاً إلى بيوت البصرة ذاتها وشرفاتها الخشبية المخرّمة بعد احتجاز دام أكثر من ثلاث سنوات في ذلك المعسكر المسوّر بالاسلاك الشائكة، وفي وقت كنا نتهامس فيه بخبر اليهودي الذي قيل لنا أن الشرطة العراقية ألقت القبض عليه وهو يهم بتسميم خزان المياه الوحيد في المعسكر.
هذا المهاجر الذي سيقول لي في مابعد أن ضابط المطار المصري ختم جوازه بعبارة "روحة بلا رجعة"، فراح ولم يرجع حتى اليوم، هو الذي وصلته من باريس، من صديقة عرفها خلال دراسته هناك، مخطوطة رواية مترجمة إلى الفرنسية ومعها الطبعة العربية. وأين يمكنها أن تبحث عن رأي في الرواية وصاحبها إن لم يكن لدى المهاجر القادم إلى بلد لم تعد فيه أم زينات المؤلف قائمة، وربما كان أحد الذين يمرون يوميا برسومها الداثرة؟ .
كان هذا هو يوسف الغازي، وكنتُ أنا صاحب القرية التي يقول العنوان بالفرنسية أنها لم تعد موجودة. وقبل أن يأتيني ردٌ على استفساري من صديق عن هذا الطائرالغريب الذي راجع الترجمة وقدم لها، ضرب الغازي بأصابعه على مفاتيح حروف حاسوبه وكتب بانجليزية بدائية:
" أين أنت يارجل؟ بحثنا عنك طويلا، وسألنا في رام الله وغزة، ولكن لم يعطنا أحد طرف الخيط، كلهم قالوا نعرفه، ولكننا لانعرف أين هو الان، لاأحد يعرف مكانك في هذا الكوكب"

"أنا نفسي.."
كتبتُ أرد عليه،
".. لم أعد أعرف لي مكاناً محدّدا منذ انتقلتُ إلى حكايات أمي، فأرسلتني إلى الوعرالذي لاتنساه، ووضعتني على حافة فجرغائم، تتساقط عليّ قطرات الندى، وتتجاذبني هواجسُ الحكايات. ربما تحولنا إلى حكايات، أو ربما مازلنا نسير إليها، من يدري؟"

* * *

لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن الغازي سيتخذ طريقه إلى حكايتي، مثلما لم أعرف أن تلك المصرية القبطية سارة الغامضة يمكن أن تستيقظ من سباتها الباريسي على إيقاع كلماتي، ولا وصلني اسم سونيا المسؤولة في دار النشر وهي تأخذ المخطوطة وتقرأ فيستيقظ فيها مشهد قريتها في سهول الفلاندر، ولكن هذا هو ماحدث في أوقات متتابعة من دون أن يعرف أحدنا الآخر، في هذه الشبكة التي تتناسج كلما اضفنا اليها حرفا أو خيطا.
بدأ كل شيء أمام رفوف مكتبة في معهد العالم العربي في باريس حيث تعمل سارة. يلفت نظرها عنوان بعربية مألوفة عن أطفال مولودين من ندى، فتأخذ طريقها إلى وعر الحكاية، وتنحدر إلى الوادي بين أشجار الزيتون، و تقدم نفسها الى غرود المشغولة بفرز العظام وشظايا الجرار، وتقف بجوار ذلك الجندي الصامت امام حطام بيته، وتراقب أمي وهي تهرع إلى البيت عائدة من أم الزينات المشتعلة بهدير المترليوز والحرائق، وتصل إلينا أخيراً نحن الصغار المنتشرين تحت أشجار اللوز في جنين.
وترفع سونيا سماعة الهاتف، وتصغي بانتباه إلى صديقتها وأنباء رحلتها العجيبة في بلد ظلّ منذ زمن طويل بالنسبة لها مجرد اسم بين آلاف الأسماء، وهاهو الآن ذكرياتٌ تبدأ بانتشال غرقى مجهولين في نهر الزمن، الزمن نفسه الذي أغرق أخيها وأمها وأبيها، وأغرق معهم غابات وطرقا وسماء زرقاء صافية وبيتاً سيظل ماثلا أمامها مثل بيت دمية لاتعرف من أين تأتيه.
حتى هذه اللحظة لم يكن ما ينفتح أمامها سوى الطريق إلى حكايتها هي، فتذهب إلى النافذة وتطل على الأشجار ومقهى الرصيف الذي سأجلس فيه في مقبل الأيام مشغولا بتناول طعام الافطار والتطلع إلى وجوه العابرين.
وها نحن ننتقل معاً إلى حيث يجلس يوسف في رامات غان وبين يديه المخطوطة والرواية بلغتها الأصلية، وصوت سونيا يحثه على القراءة، فيتخذ طريقه إلى مكان مألوف مرّ به كثيراً من دون أن ينتبه إلى أصوات صمته.
هذه القرية، وكل قرى الفلسطينيين، بقايا بيوت لأناس غابوا أو تغيبوا، لم يرو أحد قصتهم، ولم يعد من دليل إلى غيابهم سوى هذا الصبّار المتكاثف، وهذه الوجوه المنتظرة التي يصادفها على جوانب الطرقات، وبعض الطرائف التي يرويها صديقه إميل حبيبي حين يلتقيان في مكتبه في صحيفة الاتحاد. ولكن هذا الكاتب لاكراهية في كلماته، إنه يتألم ويجعل كلماته اشبه بقافلة نواح تطوق قرية لم يعد لها وجود. شعرٌ خالص، نبوءة، ذاكرة، أطفال محمولون على الأكتاف ليلا في وعر لانهاية له، جماعات لاجئين تتهامس في أماكن مجهولة، تتحدث عن أيام البلاد، عن اليهود، ولكن بلا كراهية .

* * *

يوسف :
"قلتُ لها هذه رواية مهمة يجب أن تنشر، وسأقدم لها بمقدمة تشرح للقاريء الفرنسي أرضية هذه الحكاية، أصحابها، أي أنني سأكون معك أيضاً"
حدث هذا في نهار آخر، في جنت البلجيكية بعد أن أصبحنا معاً حول طاولة السجال، ووراءنا مطبخ لوك وزوجته فرانسواز، وأمامنا شبّاكٌ يطل على حديقة هذا البيت الريفي وسط غابة من كل الجهات.
ثم ونحن في شوارع بروكسل يتساقط علينا المطر باحثين عن تمثال ذلك الطفل العاري المشرد في هذه الزاوية أوتلك، وأخيرا وأنا ألمح من بعيد تمثال ذلك الفارس الذي يمتطي حصانا ويسند بيمناه رمحا وراية، وترتفع قوائم حصانه فوق رؤوس المارة.
"سنكون معاً!"
فكرة لم تخطر ببالي حين بدأتُ قبل أكثر من ستة عشر عاماً بانقاذ أهلي من الظلام الذي ذهبوا فيه، ولكن هاهي الحكاية تقودني إلى حكايات أخرى كانت تنتظر كما يبدو ليس بالضغط على الحروف هذه المرة بل بالعودة إلى تلك المناطق المسيّجة في أعماقي وفي أعماق من قرأها.
الشاعرة الشابة ناتالي العائدة من أميركا اللاتينية إلى بيت لحم تتوقف حين تشاهد رجلا فلسطينيا وتسأله:
"ألستَ أنت من رأيتُ في قصص جدي؟"
فينظر إليها ويواصل سيره، فتتبعه، وتسأل مندهشة:
"لماذا لاتتوقف؟"
فلا يجيب. وعندها تسمع صوت حلمها أو جدها يردد:
"إنه يترك لكِ أسراراً بين آثار خطواته"
في ذلك النهار لم يكن ما يفصل بيني وبين أهالي أم الزينات يحمل سراً من أي نوع، فالأجداد حاضرون، والأمهات والصغاروالآباء، والمسافة الفاصلة بين خطواتهم ووجوههم وأسمائهم تتضاءل، ويوسف يحمل الرواية بين يديه ويتجول بينهم ويسأل عمن يعرف صاحبها، وأنا أشاهد كل هذا على الشاشة الفضائية مستثاراً بحدث يجري بين نسائم الكرمل وهي تمر حقيقية بين أشجاره هذه المرة، وسليم الفحماوي يقف على صخرة أمام الحشد المتناثر بين الأنقاض والرايات وأسماء القرى المفقودة يحملها شبان صغار، ويقرأ كلماتي بصوت رجل ستيني مبحوح تضيء نصف وجهه شمس منتصف النهاروخلفه يتناثر الحطام:
"الذكرى، المسافة، كلمة غير مناسبة أمام هذه الغابة من الأشجار التي تغطي الآن وتحجب أساسات بيوتنا وحطامها، نحن لانتذكر وإنما نحيا مجددا وقفة أمهاتنا على بئر الهرامس ونزهاتنا في الروحة ومسير آبائنا بين صيافير كرملنا العالي ومشهد الفاردة وهي تنقل العروس إلى عين حوض وأيام الحصاد والدراسة وجد الزيتون"
ويضيف بكلماتي:
"نحن نحيا مجدّدا، لأن أم الزينات بعد ثمانية وخمسين عاما ما زالت تستيقظ فينا نحن الأبناء وتواصل حياتها في أولادنا وأحفادنا، واسألوا أصوات الصمت التي تبقى وحدها بعد أن تغيب كل الأصوات تتردد بين قرانا المدمرة والسناسل التي عرّش عليها الصبر والسريس، اسألوا النسيم الذي نذكره يسري بين أشجار الزيتون كلما أخذت الملائكة لاجئاً إلى أعلى عليين.

أنتم لاتستعيدون ذكرى آباء وأمهات وأخوات وإخوة، ولاتضعون أكاليل نرجس أو حنون أو بنفسج على شواهد قبور من حجر، بل أنتم في حضرة أهل أم الزينات الأموات منهم والأحياء، من ظل لاجئا في وطنه فلسطين، ومن اقتلعوه ورموه وراء الحدود.
هذه هي قريتي، وحولها إجزم وعين غزال وجبع وبلد الشيخ صعوداً إلى الدالية وعسفيا، وتحتكم، تحت أقدام الكرمل، تمتد حيفا على الساحل. هذه ليست أسماء اندثرتْ مسمياتها، بل هي مجتمعات إنسانية اقتلعت من بساتينها وبيوتها، وحرمت وتحرم من العودة إلى معنى وجودها، مجتمعات ماثلة تتطلع إلى أنقاض قراها، بعضها على مرمى حجر منها، وبعضها ما زال بعيدا عنها وراء أسلاك الحدود.
أنتم في حضرة فلسطين التي لاتموت، الواقع والأسطورة، وكيف يموت وطنٌ يعيش في النبض ويسرى في الروح؟ نحن أبناء هذه الأرض، نعيش فيها وتعيش فينا، كان لنا الماضي وسيكون لنا المستقبل أيضاً رغم هذه الهوة السوداء في الحاضر بين ماضينا ومستقبلنا"
يزن الحسن العائد بجواز سفر امريكي يروي قصة صعوده إلى قريته إجزم ذات صيف. توقف سائق السيارة وأطل من النافذة بعد أن لم يعد يتبين المعالم من حوله، وفجأة ظهرت عجوز من لامكان ترتدي ملابس فلسطينية من التي رآها على جدته في الصور، فسألها:
"أين نحن ياجدتي ؟"
فنظرت في عينيه مباشرة وقالت بلا تردد:
"أنتَ في إجزم"
لاأعرف إن كان جوناثان كوك البريطاني المقيم في الناصرة، تعرّف على كلماتي العربية وهو يقف صاغيا بين الحاضرين، إلا أنني سأعرف في مابعد أنه كان يعد قصة أيضاً، ينقلها إلى أناس يعرف بعضاً منهم ويجهل بعضا آخر:
".. لسليم الفحماوي ذاكرة تحتفظ بما نسيه العالم، شأنه في ذلك شأن أي فلسطيني يصطدم بحرس الأنقاض الخائفين من الأحياء والأموات على حد سواء عند كل منعطف وفوق كل مرتفع وتحت كل شجرة منذ أكثر من ثمانية وخمسين عاماً. نحن الآن في طريقنا إلى المسيرة التي ستتكرر سنة بعد أخرى، وشرطة حرس الأنقاض وغابة الصنوبر والمقبرة تستدعيه حالما تسمع بالمسيرة إلى أم الزينات وتسأله، لماذا تريد تنظيم هذه المسيرة؟ فيرد ببساطة، لأنكم بنيتم دولتكم على أرض وطني، ولأن سنوات عمري تفوق سنوات عمر دولتكم"
ويتابع البريطاني أو يتابع سليم:
"حين توفي والدي في العام 1998، اصطدمتُ بهم أيضاً، أنت لن تجد يوماً من أيامنا، منذ أن تغلغلوا في أرضنا وقتلوا رجالنا ونسائنا وأطفالنا، وهدموا بيوتنا، وسيّجوا مقابرنا بالأسلاك، إلا وفيه مواجهة بين شجرة زيتون وجرافة، وبين قطرات ندى وحارس أنقاض يتحين الفرص ليمنع الأطفال من التقاطها. وحين وصلنا إلى المقبرة حاملين تابوت والدي وجدتهم يحيطون بها مثل الجراد مسلحين لمواجهة ميتٍ يعود إلى تراب أرضه. قلتُ لزعيم الحرس الأوكراني ذي الوجه الشبيه بوجه نسناس يحمل بندقية من مستعمرة الياقيم، هذا وعد قطعته لوالدي أن أدفنه في تراب قريته، فرد النسناس، إذا أردتَ دفن والدك هنا، عليك أن تدفنني أولا، وفهمت ما يعنيه تماماً:
"هكذا إذن، حتى الأموات ممنوعون من العودة!"
"أتريد أن تعود إلى الدالية بمئتي جنازة أم بجنازة واحدة؟"
هذه القبائل الهمجية موجودة هنا بقوة السلاح ونسيان العالم لنا، وعليّ أن أعود لأدفن والدي في الدالية، وهذا ما حصل، وسيحصل، إلى أن تطلب الأوطان أصحابها"

في هذه الإثناء، وجوناثان يفكر بقصته، قص يوسف الغازي على مجموعة من الشابات يتطلعن إلى أوراق تينة تخرج من فوهة بئر لاماء فيه، بعض أحداث روايتي من الطبعة الفرنسية، وسأل إن كان هنا أحد يعرف صاحب الرواية أو أحدا من أهله:
"اسمه محمد، ويسمي كروم أهله كروم الحرادنة، وكان بيت عائلته بين أشجار الخروب في الوادي، بعيداً عن بيوت أم الزينات، هل سمعتن بعائلة بهذا الاسم؟"
فهزت شابة رأسها، وأشارت إلى مجموعة فتيات مشغولات بإزالة الأعشاب عن حجرعريض مجوف يبدو أنه كان مشكاة في مضافة:
"هناك واحدة من الدالية، تلك الصغيرة، وأهلها من أم الزينات"
ها أنا إذن أعود إلى الحكاية، تعيدني هذه الصغيرة التي ستقود يوسف إلى أمها و أخواتها، ويعيدني هؤلاء الشبان الصغار الذين يلوحون بالأعلام وهم في مسيرتهم تحت أشجار الخروب، ويعود معي كل المنسيين الذين تشتتوا تحت أشجار اللوز في جنين، واقتلعت الرياح خيامهم بالقرب من عانين، وأنزلتهم الشاحنات أمام المدارس اليهودية الخالية في بغداد، وتنقل بينهم بائعوالمياه والخبز وهم يتعثرون بين تلال الجنوب اللبناني، واستقبلهم الجيش المصري على أطراف غزة وأقام لهم الخيام بين الرمال. كل هؤلاء يعودون معي ويتوزعون على أطراف الدالية في الوقت الذي جلس فيه يوسف إلى إبنة عمي فاطمة وحوله بناتها وأولادها وخيالاتٌ بدأت تدعوها من كل الجهات.

* * *

لاتنتهي القصص، حتى لو تخيلنا أنها تتوقف ما أن نصل إلى تلة أو منعطف، أو تتوقف الطيور التي ترافقنا عن الكلام، ففي هذا العالم الواسع يظل الناسُ أحياءً حتى وإن غابوا، وتصل إلينا أصواتُ أناس نألفها ما أن يتحدثوا الينا. هم يعرفون طرفا من حكاية، ونحن نعرف طرفا، وسرعان ما نبدأ بوصل أطراف الحكايات. لايفاجئنا أنهم يتحدثون الينا، بل أنهم لم يصلوا بعد، سواء كانوا يتبادلون الان في اوكسفورد خبر يسرى الفلسطينية شريكة غرود في حفرياتها وهي تخرج من صمتها بين سطوري، أو كانوا من رواد مسرح الإلياد في ستراسبورغ الذي دخلته برفقة جبينة وأمي، أو كانوا من المسنين الجالسين الان حول حطب موقد في ذلك القصر الأبيض وسط غابة من غابات الفلاندر يتذكرون الكاتب الذي مر بهم واستغرب أن يفكر أناس في هذه الجنة بالحرب.
كلهم يتحدثون الان. ومنهم هذه العابرة إليّ عبر فضاء الانترنت من لندن، هيلين والاسك:
"عزيزي ..أخبرتني باميلا برسالتكَ اليها، واكتشافك ليسرى، وأنها من قريتكم، هذا خبر مثير بالنسبة لي، أنا أحاول معرفة المزيد عن يسرى والنساء الفلسطينيات اللواتي عملن مع غرود. أريد أن أعرف بخاصة ماحدث ليسرى وعائلتها بعد العام 1948، أفترض أنها كانت ما تزال حية آنذاك أو في مابعد. قصة يسرى والنساء الفلسطينيات مع غرود حدث فريد في تاريخ علم الآثار، قصة تستحق أن تروى، لابد أنها كانت شخصية متميزة.."

هيلين تتلهف لمعرفة المزيد. هناك الكثير من الاسئلة. فمنذ أن سمعتْ عن يسرى لأول مرة في محاضرة حول الآثار ورأت صورتها تأثرت كثيرا، واتخذت طريقها الى القدس ثم الى الكرمل متتبعة آثار أناس قيل لها أنهم من القرى التي جاء منها الفريق النسائي، إجزم وجبع وأم الزينات، ولكن أول سؤال كانوا يسألون هو عن اسم عائلة يسرى، فمن دون اسم العائلة لايمكنك إمساك خيط يقودك في متاهة عمرها أكثر من سبعين سنة.

"هي متاهة بالفعل، صحيح أنها من قريتنا، ولكنها كانت متزوجة في إجزم، هل تعرفين ماذا حدث هناك؟ وكيف بدأت المتاهة؟ الطائراتُ الصهيونية ظلّتْ تقصف هذه القرية العنيدة طيلة ثلاثة أسابيع، وتشتت أهلها مرغمين بين شعاب الجبل، ربما نجت يسرى، ربما اتخذت طريقها مع أطفالها الى جنين، من يدري؟ هذا خيط في نسيج مصائر مئات الالاف الذين تقطعت بهم السبل ياعزيزتي" .

يدهشني هذا الاهتمام العجيب بهذه الفلاحة التي دخلت ربما مصادفة في صفحات علم الآثار البريطاني، وتزداد دهشتي مع رسالة أخرى عبر الإنترنت، وهذه المرة من الكساندرا بلاك الاسترالية تطلب مني، أنا الوحيد ربما االذي تعرّف على يسرى في هذا العالم المائج بحاملات الطائرات وأنابيب البترول والغاز، أن أمنحها إذنا لتستخدم اسم يسرى وسيرتها وصورتها في كتاب جديد، وأيضا عن تلك الحفريات الغارقة في ضباب نهارات الكرمل:

"اقترحتْ عليّ باميلا أن اتصل بك وأطلب منك السماح لي بنشر صورة قريبتك يسرى مع دوروثي غرود. أنا أعد الآن كتابا عن الناطوفيين في العصر الحجري، وفيه صفحة عن تنقيبات غرود. سيكون الكتاب جزءا من سلسلة يصدرها ناشرون دوليون عن الحضارات القديمة. هل لي أن أسأل كيف عرفتْ يسرى عالمة الآثار البريطانية ؟ هل كانت تساعدها في الحفريات؟"

"حين نشرتُ روايتي أطفال الندى في العام 1990، وفيها صورة غرود المتخيلة في شعاب جبل الكرمل، لم تكن لدي فكرة عن النساء اللواتي نقبن معها، ولكنني أتذكر أن أمي كانت تروي دائما عن قريبة لنا اسمها يسرى عملت في مغارة الواد مع امرأة انجليزية، أي غرود كما عرفتُ في مابعد. في البداية كانت لدي فكرة مبهمة، ولكن حين أصبحتُ صديقا لشبكة الانترنت، حصلتُ على المزيد من المعلومات. وجدتُ باميلا سمث من كيمبرج البريطانية تكتشف أوراق غرود في مكتبة باريسية وصورها هناك في كرومنا وهي تعد أطروحة عن حفريات العصر الحجري، فاتصلت بها أسألها المزيد من المعلومات. كنتُ في منتصف روايتي هذه، وأمامي صورة يسرى وطفلها وغرود بجوارهما تحت ظلال الخروب في ذلك النهار البعيد. وجاءني الجواب فورا، ومعه الأطروحة والمزيد من الصور لشابات فلسطينيات ينخلن تراب الحفريات، أو يحملن على رؤوسهن السلال، فدخل المشهد كاملا في روايتي؛ دخلت يسرى وطفلها ومعها غرود تحت ضوء جديد، ودخلت باميلا أيضا، وأنتِ والكثيرين الذي يتحدثون عنا الآن"

وتعود هيلين إلى الكتابة:

"قرأتُ النصوص المهمة التي أرسلتها إليّ، سأذهب في الشهر القادم إلى القدس، وأود زيارة جبل الكرمل وإجزم وجبع حين أكون هناك، أتساءل: هل يمكنني الحديث إلى أقربائك هناك، سليم الفحماوي وعائلته؟ هل سأجد لديهم شيئا عن يسرى؟"

قد تكون يسرى جبينة أخرى، ولكنني أتأكد الآن أنها ربما تكون جبينة نفسها التي لم تدخل في حكاياتنا، أو أنها دخلت ولكننا لم نتبينها كما لم نتبين حتى الان وجوهنا التي تمحوها الكلمات وهي تتكاثر وتتحدث عن كل شيء إلا عن ليل اللاجئين الطويل.

الإخوة السبعة

ونحن نتخذ طريقنا بين منعطفات غابة جنت البلجيكية عند الغروب لزيارة أناس قالت فرانسواز أنهم يودون التعرف علينا، وما أن لاح ما بدا قصرا أبيض عتيقا بين الأشجار، حتى تذكرت قصة ترويها أمهاتنا عن الإخوة السبعة الذين تمنوا أن تلد أمهم أختا لهم، وحين جاءها المخاض واقتربت ساعة الولادة، خرجوا قائلين:
"نحن ذاهبون إلى الصيد، إذا جاء المولود بنتا فضعي المكحلة علامة على الباب، فنعرف أنها بنت، فندخل، أما إذا ولدتِ ولدا، فضعي بندقية، وعندها سنعود إلى الغابة ولن نرجع أبدا"
وولدت المرأة بنتا، ولكن الداية بسبب ارتباكها أو شدة تأثرها، علقت على الباب بندقية. وجاء السبعة، وما أن لمحوا البندقية من بعيد، حتى غضبوا وقرروا العودة إلى الغابة، وهناك ابتنوا لهم قصراً وعاشوا فيه، أبيض مثل هذا ذا شرفات، يتخذون اليه طريقا مرصوفا بالحصى مثل هذا الذي نسير فيه.
لم يكن مرّ على وجودنا في بيت لوك الريفي المجاور سوى بضعة أيام، وخلال أيام قضينا معظمها في السجال لم أعرف من الغابة إلا ما يحيط بالبيت من أحراش بدا لي الدخول بين جذوعها الملتوية وأوراقها المتشابكة والسير في طرقاتها المعتمة غير الممهدة خطراً، فاكتفيت بمراقبتها عند مغيب الشمس وعند انبلاج الفجر.
استيقظ مبكراً، وأهبط السلّم الخشبي محاذراً إصدار صوتٍ يوقظ النائمين، وأتناول الشاي صامتا صاغيا لسمفونية الطيور تتصاعد وراء زجاج نافذة المطبخ الأرضي المطلة على حديقة الأعشاب الخلفية المهملة. كانت السمفونية تبدأ بغمغمات تجيء من كل أرجاء الغابة مثل غيمة، ثم تتصاعد الأصوات وتتميز، زقزقةٌ فصفيرٌ فتغريدٌ، منفردة تارة ومجتمعة تارة أخرى، تشفّ وتعلو كلما انتشر الضياء وبدأ يتغلغل بين أوراق الشجر وينحدرإلى الظلال المتلبثة فوق الممرات، إلى أن تخف الحركة شيئا فشيئا والأصواتُ، ويعود كل شيء إلى صمته إلا من زهرة أو زهرتين بمحاذاة سور الحديقة.
كانت هذه الصباحاتُ عالقة في ذهني ونحن نقترب من القصر الأبيض، أو بيت الإخوة السبعة الذين عاشوا في الغابة مغاضبين، لايعرفون أن أمهم ولدت لهم أختا بالفعل، وأنها كبرت، وظلت ذكرى إخوتها غائمة في ذهنها، فهي لم تعرفهم إلا في أحاديث أمها وحسرتها على فقدانهم.
الأماكنُ شأنها شأن الأصوات، حين تحضر معا تبدأ عزف سمفونية غير متوقعة، وكذلك وجوه الناس، من مات ومن عاش ومن يسير إلى جانبك، من ظل يعيش في وعر الحكايات ومن غادر، ومن يتهيأ الآن لدخول الحكاية. الكل يخاطبكَ، وعليك أن تصغي.
هذه الطرقات المتشابكة الضائعة بين الأشجار الكثيفة تنبلج فجأة عن دليل على وجود سكان منعزلين، عن نغمة بشرية تضاف إلى سمفونية من أصوات ووجوه وأماكن. لعل الأخت الصغيرة في الحكاية لم تأت هنا مصادفة:
"بينما كانتْ تخبز سقط رغيفٌ من يدها وتدحرج، فركضت وراءه، فتدحرج، وكان يسرع كلما أسرعتْ وهمّت بالتقاطه، وهكذا تغلغل الرغيفُ في الغابة، كما نتغلغل الآن، وتلاحقه الأختُ، إلى أن

يتوقف عند بوابة القصر، وعندها تدخل مستثارة بهذا البناء المنفرد الذي لم تلحظه طيلة حياتها. وفي الداخل تجد سبعة أسرة، سبعة أكواب، سبعة أطباق، سبعة مقاعد"

لم تقل أمهاتنا شيئا عن مصير رغيف الخبز، أو لم يعنهن أمره بقدر ما كان يعنيهن أن تصل الأختُ إلى إخوتها بهذه الطريقة العجيبة، ويجتمع شمل الجميع؛ الإخوة الذي اكتشفوا أن لهم أختا، والأخت التي اكتشفت أن لها إخوة .

لم تعرف فرانسواز، ولا لوك، ولا الغازي، مادار في ذهني.

في تلك الساعة، ونحن نسير على الطريق المرصوف بالحصى، تعلقت العيون بشخصين ضئيلين عجوزين مثل قزمين منفردين في غابة يقفان في انتظارنا أمام البوابة؛ السيد ايف بمعطف بال وواسع، والسيدة آن المسنة المتأنقة بحمرة شفاه فاقعة.

كم من القرون مرّ منذ أن دخلت الطفلة وهي تجري وراء رغيفها وهو يتدحرج أمامها، وكم من السنين مرّ وهي تعيش آمنة بين إخوتها؟

كانت الدعوة متواضعة إلى أكواب شاي والقليل من الكعك المحلى، ولكن قبل الدخول أخذنا العجوزان اللطيفان إلى جولة حول المبنى وهما يشيران إلى اتساع هذه الغابة التي يمتلكان، وأبدت السيدة أسفها لأن الأعشاب في هذا الموسم ليست خضراء كما هي عادتها في المواسم الماضية.

قلت معزيا:

"ولكن ها هنا خضرة كافية..فماذا تقولين لو رأيت صحراءنا ؟"

وضحكتُ لاستثارة فضولها. لم تفهم ما أعني بالضبط. سكتُ متجولا بنظري، أحاول تتبع الأسماء التي تشير اليها وهي تطلقها على هذا الحوض من الأزهار أو تلك الأجمة المعتمة. وبدت لي هذه الأرض بأشجارها واسعة جداً على قزمين، فحتى لو قضيا نهارا كاملا يجولان فيها بعربتهما الصغيرة، فلن يصلا إلى أطرافها.

هذا ما حدث مع الطفلة بعد أن وصلت. يخرج إخوتها إلى الصيد، وتظل وحيدة في القصر مع توصية بأن لاتفتح الباب لأحد، لاتتجول في الغابة. العالم الواسع لايؤوب من يذهب اليه. ولكن الحكاية لاتتوقف هنا، بل يحدث الإنقلاب حين يدق الباب ذات يوم غول يعيش في الجوار، وحين ترفض أن تفتح الباب يطلب منها أن تمد اصبعها فقط ليمصّه وإلا حطم الباب ودخل والتهمها. ومن شدة خوفها، تمد إصبعها لتنجو. ويكررالغول الزيارة يوما بعد يوم، ويتكرر مصٌّ الإصبع والخوف، وإخوتها لايعرفون مايجري، ولا أحد في العالم يعرف ما يجري، سوى وجهها الذي بدأ يزداد شحوبا.

السيد إيف يجلس في مقعد عريض يواجه مقعد السيدة آن الضئيلة الحجم، وعيناه معلقتان بها. يداه مضمومتان في حضنه. تتحدث وهي تناولنا أكواب الشاي. وألاحظ أنه يحرك شفتيه على إيقاع كلماتها بلا صوت، متمتما كل كلمة تقولها كما يبدو من دون أن ينظر إلينا. وحين تتوقف عن الكلام، يدير رأسه وينظر إلى وجوهنا. تتوقف شفتاه عن الحركة، كأنه يطالبنا بالكلام، يصغي بانتباه، ثم يعود إلى التمتمة.

السيد إيف كان أعجوبة القصر في تلك الجلسة، كما لو أنه قفز من حكاية ليلتقط زهرة على جانب الطريق، فخلفته الحكاية وراءها، وواصلت طريقها من دون أن تلتفت إليه وتلتقطه.

وحدثتُ نفسي:

" أيمكن أن يكون هذا أحد الإخوة السبعة، امتد به العمر، وأصابه نوع من العته جعله يقضي أيامه الأخيرة في محاكاة حركة شفاه زوجه المسنة صامتا، خائفا أيضا، حذرا من أن تفوته كلمة أو إشارة، ويداه مضمومتان على زهرته؟".

*　　　　*　　　　*

"ما رأيكَ لو نلتقي؟ لدي فكرة عرضتها على أصدقاء في باريس، أن نقيم حوارا بيننا، أنت تتحدث عن تجربة اللجوء، وانا أتحدث عن تجربتي، وسترعى الحوار دار نشر محترمة؟"
لم يقل الغازي وهو يهاتفني عن أي تجربة سيتحدث، إلا أنني أدركتُ بالطبع أنه سيتحدث عن هجرته إلى فلسطين، وسأتحدث عن اقتلاعي من فلسطين، وسنضع الروايتين بجوار بعضهما البعض.
".. قلتُ لهم أن طرقنا تقاطعت، وعند منعطفات مهمة، حتى من دون أن يعرف أحدنا الآخر"
سيكون الأمر مثيرا ومهماً، وبسيطا أيضا بساطة جدول يجري بين صيافير الكرمل، ثم يصب في البحر كما كان الأمر منذ الأزل. أنا النهرالذي يحتفظ بحكاياته، وهو العابر الذي يهبط من حكايته، ويتجول الآن بين أحراش زيتوننا، ويميل على الأرض، يلتقط غصنا يابسا أو كوز صنوبر يضعه في جيبه للذكرى، وحين يفاجئه النهر يتوقف، ويحدق مذهولا متسائلا ربما :
"من أين جاء هذا ؟ وما الذي ألقاه في طريقي؟"
"لابأس، طرقنا تقاطعت بالفعل كما تقول، وهذه قصة بحد ذاتها تستحق أن تروى"
وفكرتُ بالسهولة التي سأروي فيها كل ما حدث، بالعفوية التي كتبت فيها أطفال الندى. لن أكون بحاجة إلى الكثير من الجدل والسجلات والأوراق. ولن يكون الغازي بحاجة إلى أسطورة من أساطير الصهاينة بعد أن صعد إلى الجبل والتقى بفاطمة وبناتها، ونزل ضيفا عليها في دالية الكرمل، وتناول طعامه صاغيا لأصوات العصافير وحفيف الريح في تلك القرية القريبة من أم الزينات.
حين مرّت ملحوظة في حديثه خلال سجالنا حول طاولة الحوار في المطبخ الأرضي عن ضفة غربية محتلة، وعن غزة محتلة، قلت معقبا:
"صحيح هذه أرض محتلة، ولكن حيفا أيضا محتلة ويافا وعكا وبقية المدن الفلسطينية"
فوجيء الغازي، ودهشت فرانسواز من هذه الإنعطافة غير المتوقعة، إلا أنه استدركَ المفاجأة ومدني بسبب آخر ربما من دون أن يدري لتأكيد أن فلسطين كلها أرض محتلة:
"هل هذا لأن الفلسطينيين هناك لاحقوق لهم؟"
" هذا ما أعنيه، وأعني شيئا آخر، لقد أُنتزعتْ منهم بيوتهم وأراضيهم"
وتعلقت بي عيون فرانسواز، بينما كان لوك على مقعد منفرد يتشاغل بتصفح صحيفة، فقلت متخيلا ظلال الخروب ومنحدرات الكرمل:
" أنتَ تعرف بالطبع سليم الفحماوي زوج فاطمة المقيم في الدالية القريبة من أم الزينات، ألم يمنعوه حتى من دفن والده في مقبرة أم الزينات؟ هل خطر ببالك أن هناك على التل الوسطاني مازال يقيم أبناء أبو الهيجاء وأمامهم عين حوض التي احتلها الغرباء؟ ثم هناك أراضي وبيوت اللاجئين. أنا أستغرب لماذا لايمكن للاجيء العودة إلى أرضه، حتى ذلك الذي يبعد عنها بضعة أمتار!"
وترجم الغازي كل كلمة قلتها إلى الفرنسية، ثم عاد إليّ بعد تفكير وتساءل:
" معنى هذا أنه إذا تمت تسوية ما لهذه الأمور بطريقة ما، لن يكون هناك احتلال؟"
" طبعا، حين استرد حقوقي فمعنى ذلك أن الإحتلال زال، ستكون هناك دولة خلعت عنها ثياب العنصرية، وهذا الخبل الذي جعل الدين قومية"
"أنت لاتستطيع أن تفرض على الإسرائيليين تغيير طابعهم الذي ارتضوه، لاحق لك في هذا"
"هم لاحق لهم أن يعيشوا خارج المشهد الواقعي فكريا وشعوريا، قابعين في خوفهم من الخروج من الأسطورة التي خلقوها عن الأرض الخالية. ثم أليس من حق أي انسان في العالم أن يرفض بل

ويقاوم النظم العنصرية حين تقوم على إبادة السكان الأصليين وسرقة أراضيهم، ألم يكن من حق العالم أن يرفض ويقاوم النازية؟"
"ولكننا نريد حلا واقعيا، والآن، لا حلا مثاليا"
" الواقع؟ لاأحد يبني على الواقع المختلق، على المشهد المتخيل، ويكون جادا في بحثه عن السلام، لدينا الماضي والحاضر والمستقبل على الطاولة، ومن العبث التمسك بالحاضر وحده، هذا لن يؤدي إلا إلى إطالة أمد الصراع. أنا أمامك لست ماضيا فقط بل أنا حاضر أيضا، لاتستطيع محوي كل زجاجات الويسكي التي كرعها السيد قريع ووفدكم حين بصم على اتفاقيات اوسلو، أنتم اتفقتم مع سمسار رقيع لا معي أنا، صاحب الأرض. ثم، هنالك شيء يبدو أن الصهاينة، شأنهم شأن الصليبيين لم يفهموه؛ حتى لو تحلّلت بطون ومقاعد القيادات الفلسطينية والعربية وخمّجت، لن تتوقف المقاومة، لأن التحللُ والخمجُ لايصيب ماهو عقيدة راسخة في ضمير كل عربي، إيمان العربي شأن فردي تماما لايقرره سمسار أو منتجع كلأ"
صمتَ الغازي متوتراً، وسألته فرانسواز قلقة أن يترجم لها ما قلته للتو وعيناها تتنقلان بيننا. شعرتْ بأن غيوما كثيفة بدأت تتجمع في جو السجال. ربما خشيتْ إخفاق هذا الذي أرادته حواراً يتفاهم فيه عدوان لتخرج بكتاب مهم. إلا أنها عادت إلى اطمئنانها حين بدأ الغازي يترجم، وأنا أشرح له معنى كلمتي الخمج والكلأ الذي استعصى عليه.
ولاحظتْ أنني كنت هادئا، فسألتني:
" كيف يمكن أن يجتمع ماض وحاضر ومستقبل معا ؟ أليس في هذا تأجيلا لكل حل؟
"سأقول لك كيف.."
تابعتُ وأنا أبحث عن صور مناسبة، وفي سمعي سمفونية الطيور:
".. تخيلي ثلاث آلات موسيقية مختلفة، آلة الماضي وآلة الحاضر وآلة المستقبل، هذا هو وجودنا الحق، ولايمكن أن يكتمل إذا اكتفينا بسماع صوت كل آلة على انفراد. تريدين حلا ؟ لنعزف إذن على الآلات الثلاث معا، وسيكتمل الوجود ويتحول إلى شجرة مسرّات"
"أوه.. هذا جميل"
قالتها مندهشة، كأن أوتارا غافية استيقظت في سنوات عمرها، واجتاحت وجهها موجة تأثر وردية لاتخطئها العين، فالتفتُ إلى لوك ومازحته بالإنجليزية التي يجيدها:
" تخيلْ لو أن الفلامش والدانش انتزعوا منك هذا البيت الريفي، ورموا بك إلى الشيطان، وقالوا لك هذه دولة فلامدنشية لاحق لك فيها، لاأنتَ ولا أجدادكَ ولا أحفادكَ، فماذا تقول؟ هل تذهب إلى اوسلو وتشرب حتى الثمالة وتوقع على اتفاقيات بلغة الفلامش؟ من المؤكد أنك ستهدم عليهم برلمانهم في بروكسل. وبالمناسبة، هذا التمثال لملكٍ صليبي وسط مدينتكم يشعرني أنها تنتمي إلى القرون الوسطى، ثم هذا الطفل السمين العاري الذي يبول ضاحكا في كل زاوية، ماهي قصته؟"
ضحك لوك، ثم هتف بلهجة تذكر بخطيب في قاعة برلمان:
"هذا التمثال من صنع الفلامش لا من صنعي أنا، أنا ضد العنصرية في أي مكان، ولم أتوقف حتى بعد أن طردوني من الحزب الليبرالي، أما هذا الطفل، فلا بد أن والده الفلامشي الثري الذي أقام له تمثالا في كل زاوية ودكان كان مخبولا، فجعلوا التمثال رمزا لبروكسل وما جاورها لأنهم لايقلون خبالا عنه. أنا لا أشاركهم الإحتفاء بهذا الخيط من البول التاريخي"
هنا قهقه الغازي وتحدث بالعربية:
"تلك الحكاية ! مازال يكررها منذ عشرين سنة، دعنا نرجع إلى موضوعنا"
من تردد الغازي، ومحاولته مد جسر بيننا، احسستُ أنه التحق بحكايتنا، مع أنه تخلف كثيراً في طريقه؛ التقطه كيبوتز هنا، وفرقة عسكرية ذاهبة إلى سيناء حيث قرر، كما سيخبرني في مابعد، وبعد أن دخل العريش في شاحنة عسكرية، أن يطلق رصاصة على كفه اليسرى حتى يبر بقسمه؛ أن

لايقتل أحدا. وهكذا سيبدو كل شيء طبيعيا، كأننا عرفنا بعضنا منذ زمن طويل. هو في المستشفى بعد أن نقلوه إلى الخطوط الخلفية، يخشى أن يهذي ويبوح بسرّه تحت تأثير المخدر، وأنا مع الطلبة في فناء الكلية في بغداد، والعميد يخطب بنا، مخيرا الجميع بين أن يدخلوا إلى قاعة الإمتحان أو يؤجلوا امتحاناتهم، ثم مؤكدا وهو يغالب دموعه على أنهم يريدون إذلال العرب، ولكن العرب لن يذلهم أحد.
أخذتنا الحكاية، حكايتي، إلى الحقيقي والملموس. أنا فتحتُ الأبواب والنوافذ على مسارب الوعر وحجارة قريتي وقبور أهلي، وهو تخطى سنواته الستين، مثل أي هاو للقصص، وبدأ يتجول معي مستعيدا اسكندريته وطرقاتها، والندبة في كفه اليسرى، واثقا أنه يدخل مشهدا حقيقيا ربما لأول مرة في حياته.
"خذ الفكرة، نم معها، لاتؤجل، لم يعد في العمر متسع، وسنجد ناشراً"
أنا واثق أننا سنجد ناشراً، فلأول مرة يجتمع راوية وهاو للروايات، ولأول مرة سيقف القاريء الأجنبي عند مفترق الطرقات، وسيعرف أي مياه جرت في الأنهار، وأي نوع من الصخور تدحرج تحت أقدام الفلاحين وهم يهرعون لمواجهة جنود الانجليز، وأي ليلة تلك التي صحوا في ظلامها على الكمائن اليهودية وهي تطوق قراهم، وأي نسيم ما زال يتردد بين أشجار الزيتون التي شهدت قتلاهم والغيلان تتناوشها، وأطفالهم يختبئون بين الصخور وأشجار السريس.
" لديكَ روايتك ولديّ روايتي، قد نختلف، ولكنني سأقول ما رأيتُ وسمعت، وستقول أنت.."
".. لن نختلف كثيراً، خذ الفكرة ونم معها"

* * *

لم تفارقني صورة التمثال على حصانه وهو يسند رمحه ورايته بيساره في ساحة بروكسل تحت المطر.
هتفتُ مندهشا:
"من هذا الفارس الأخيولي؟ "
كل شيء كان يوحي أنه تمثال فارس صليبي مازال يمتطي حصانا مدرعا ويتقلد سيفا، إحتفظوا له بكل ما امتلك في حياته من دروع وأسلحة. وبالفعل، وما أن اقتربنا، حتى تبينت انهم كتبوا على قاعدته النحاسية المخضرة بفعل القدم بحروف لاتينية بارزة "جودفروا دي مولون، أول ملك للقدس، حامي الضريح المقدس"!.
بدا لي الفارس وحيدا معتما، لايلتفت إليه أحد من المارة القليلين، ربما بسبب الإعتياد، إلا أن مشهده أمام مبنى سأعرف في مابعد أنه مبنى البرلمان، أشار إلى أنهم يحرصون على تلميع حروف اسمه ولقبه وترميم خوذته وسيفه وقوائم حصانه بين فترة وأخرى، أي أنهم مازالوا يعتقدون أنه ملك القدس حتى بعد أن صارت عظامه مكاحل، وتحول إلى تراب اختلط بطين الأرض، وربما عجنه عامل بناء فلسطيني مع ما عجن من تراب وسد به خرقا في جدار خرب، تماما مثلما اعتقد هذا الأحمق ذات يوم أيضا في تحد للمنافسين الفرنجة الآخرين؛ ريمون التوليزي، وروبرت الفلاندري، وروبرت النورماندي.

والآن وتحت المطر وسناج المداخن، ما الذي يجعل الفلامش يلمعون تمثاله ويعلفون حصانه؟ هل يعلنون بهذا تحديهم لريتشارد البريطاني الذي عاد خائبا ولم ينقذ شيئا من شظايا تلك المملكة إلى جزيرته عبر الأراضي الإيطالية، وليعتقله الفرنسيون، ولا يطلقون سراحه إلا بعد فدية ضخمة، أشعث اللحية تائها زائغ العينين؟ أم ينتظرون أن يتحرك، ويهزّ رمحه، ويتقدمهم متمهلا إلى القدس؟
هذه ليست معلومات يرويها تمثال، بقدر ماهي رائحة ثقيلة احسستُ بها تتغلغل في زواريب بروكسل، وتدخل إلى كاتدرائيتها الهائلة، وتنتشر فوق رؤوس الفلامش الذين يكرههم لوك لإسباب أخرى ليست اعتزازهم بهذا الفارس الجامح الخيال، بقدر ماهي أسباب مصدرها حربه الطويلة الخاصة به؛ ربما لأنه يصرّ على الإحتفاظ بقناع وجه ديغول المطاطي المعلق على جدار غرفة نومه نكاية بهم.
إنها رائحة القرون الوسطى، أو رائحة الإقطاعيات وفلاحيها ودوقاتها المتعجرفين اللذين كانوا يهبرون اللحم في قلاع رطبة، هم وأباطرتهم المحاطون بالإتباع المتمنطقين بسيوفهم دائما حتى وهم يجلسون إلى موائد الطعام يتناولون كؤوسهم، أو يتلمسون أجساد جواريهم، حالمين بإقطاعيات شاسعة خضراء يكثر فيها العبيد في ذلك الشرق الغامض.
وجاء الجواب كما ظننت، وزاد دهشتي. إنه بالفعل فارس يعيش أخيولة جامحة منذ أكثر من تسعة قرون في هذه الساحة أمام أنظار أعضاء البرلمان المتأنقين والمارة الفضوليين واللامبالين على حد سواء.
قال لوك بلهجة ساخرة مرّة:
"هذه تحفة البرلمان الأوروبي إلى العالم كما أظن"
الغازي الذي قليلا ما أثار حديث الآثار شهيته لم يقل شيئا.
وعلقتُ:
"..كل شيء هنا يوحي بزمن آخر.. لماذا يصرّالناسُ على العيش نصفا يتدلى في أخيولات الماضي الجامحة، ونصفا يتدلى فوق ضفاف الأنهار الطينية الملوثة بزيت البواخر وقشورالأسماك الطافية؟"
قبل يومين من هذا اليوم الممطر، أصرّ لوك على أخذنا إلى قرية مجاورة لقريته بحماس، متحدثا عن مدن راهبات ما زالت قائمة، راهبات إعتزلن الحياة تماما، وأقمن وراء الأسوار. وأصرّ على التجوال بين العمائر الخرساء الآن تماما، وشرح طبيعة هذه الطوائف العجيبة. وحين أبديت اهتماما بقراءة الألواح التذكارية وتسجيل بعض الملحوظات، اغتبط مثل طفل. من الواضح أنه كان يأخذنا إلى أجزاء عزيزة من نفسه وذاكرته السحيقة. وألح عليّ التساؤل مرة أخرى:
" لماذا يتمسك الناس هنا بأخيولاتهم وفرسانهم الذين تعفنوا منذ قرون وطوتهم الرمال بعيدا عن الأرض التي ترتفع فيها قلاعهم الخربة، وتصرخ في أرجائها نوارس البحار الشمالية؟"

* * *

السيد إيف يتمتم مثل طفل وهو يراقب شفتي زوجه ويتلقط كل كلمة تقولها:
"أعتقد من الخطأ أن يسموا الفلسطيني إرهابيا، كيف يكون ارهابيا من يقاوم احتلالا؟ حين وقعوا اتفاقيات اوسلو كنا نظن أن السلام حل أخيراً.. ولكن ما رأيناه المزيد من القتل والاحتلال"
وأسألها بلهجة مؤدبة:

"ألم تكونوا تعرفون شيئا عن طبيعة المشروع الصهيوني؟"
"لا.. لم نعرف عنه شيئا"
" هذا مشروع قام أساسا على اغتصاب أرض وإبادة سكانها، وما زال متواصلا، عن أي سلام يتحدثون؟ سلام المحتل؟"
ظلّ الغازي غائبا، شارد الذهن، وكذلك فرانسواز، أما لوك فانشغل بتفحص ما حوله من أثاث ذكره بما ورثه عن أجداده الغابرين الذين تركهم نابليون في قرى الفلاندر، فأقاموا فيها وأورثوه اللغة والخيال ليصارع بهما فلامش بروكسل، ويتجاهل لهجتهم حتى حين يخاطبوه بها.
ومرّت خارج النافذة هبة ريح قوية، فالتفتَ إليّ السيد إيف وفي عينيه نظرة ضارعة لاأعرف سببا لها، وإن خمنت أنها نظرة اعتذار عن سوء أحوال قصرهم الخشبي العتيق، أو طلب أن أتجاوز هذه الريح العابرة، وأركز على المشروع الصهيوني. كانت شفتاه تتحركان بصمت فيه رغبة وتوق، وفي عينيه رجاء أن لا أتوقف عن الحديث.
لم أذهب مع الريح، وأنصتُ إلى فرانسواز وهي تسأل عن أبنائهما، من منهم مازال في الفلبين ومن منهم مازال في أمريكا. من الواضح أنها تعرف سكان الغابة هؤلاء معرفة جيدة:
"علمتُ أن برونو سيجيء من سان فرانسسكو لزيارتكم؟"
"المسكين.. هو هنا، ولكنه لن يطيل المقام.. لقد توزعوا في كل أرجاء الأرض، ولم يبق أحد سواي وإيف.. وهذا البيت"
"هذا بيت العائلة.."
علق لوك موجها كلامه إليّ..
".. وما زالوا يتشبثون به مع غابته الشاسعة"
"أقزام الغابات.."
قلتُ بيني وبين نفسي..
"..لابد أنهم ينتظرون أن تحل قطر الندى ضيفا عليهم في يوم من الأيام، يبدو أن لهم حكاية ينتظرون أن تمر بهم ليلتحقوا بها ويقولوا وداعا لفرنسواز ولوك. لن أكون حاضرا يومذاك، ولن يجد الغازي رغبة في الاهتمام بقزمين في غابة"
السيد إيف يطيل النظر إليّ، فأربّتُ على يده المضمومة وأقول:
"فهمتُ ماتريد أن تقول، سيكون للحديث بقية"
وألمحُ على شفتيه طيف ابتسامة راضية وفي عينيه نظرة طفل ينظر إلى ما بين يديه.
على يمين الباب الذي دخلنا منه ثقبٌ واضح بين لوحين خشبيين، لابد أنه هو الذي اعتادت الطفلة أن تمد اصبعها ليمصّه الغول، فتزداد شحوبا يوما بعد يوم، ويسألها إخوتها فلا تجيب خشية أن ينفذ الغول وعيده، أو يحدث شيء مخيف تشعر به ولكنها لاتفهمه، إلا أنها تخبرهم في النهاية بالحكاية منذ البداية حتى النهاية، فيتطوع الأخ الأصغر للبقاء معها في اليوم التالي:
"غداً حين يجيء الغول، ويطلب منك مد إصبعك، لاتمديه، وقولي له إفعل ما شئت، سأكون في انتظاره وراء الباب"
وبالفعل هذا ما حدث. رفضت الطفلة مدّ إصبعها، فزمجر الغول واقتحم الباب، وهنا هوى الأخ الأصغر بسيفه على رأسه وقطعه.
حين تصل أمهاتنا بالحكاية إلى هذه اللحظة التي يتدحرج فيها رأس الغول، نضحك فرحين، ونشعرأن الأخ الأصغر أنقذنا أيضا من الشحوب الذي كان يتسرب إلينا كلما جاء موعد مص الإصبع. ويرتاح صوت الراوية، تاركا لنا هذه المساحة المفاجئة من الإبتهاج، قبل أن تواصل الحديث، فنعود إلى الترقب والتوجس، منتظرين مفاجأة لم تكن في الحسبان.

*　　*　　*

عند عمود لاباستيه أوقفت فرانسواز سيارتها الصغيرة.
في أول نهار باريسي لي، قبل الرحيل إلى جنت والبيت الريفي، سألتها أن تأخذني إلى نصب الكومونة الذي لاأشك أنه يقوم في مكان ما من باريس، وإلى حي مونمارتر الذي انتحر فيه اوتريلو الايطالي. لم أعرف أن هذا الطلب سيكون مصدر زهو لديها إلا بعد أن قرأتُ في مقدمتها لكتابنا، مابعد الجدران، هذه الكلمات المزهوة:
"..هاهي باريس الثورات تجتذب الاهتمام كما كانت دائما. وها نحن نصل إلى نصب الكومونة، فيحدث أمر لافت للنظر. يدير الأسعد حوارا مع فريق من الطلبة متجمعين عند الجدار تحت اللوحة الوحيدة التي اختصرت تلك الأيام، فيسأل "ماذا ترون في هذه اللوحة ؟ أي ذكرى تثيرها فيكم" ثم "هل تعتقدون أن ذكرى تلك البطولات تكفيها مجرد لوحة؟" كان الأسعد منجذبا إلى فكرة أن يؤتى بطلبة إلى هذا الجزء من المقبرة، وتتلبث الذاكرة ولا تزول، وتحيا من جيل إلى جيل"
لم أفهم للوهلة الأولى معنى عمود لاباستيه الذي تشير اليه. ولم أدرك انها تتحدث عن الباستيل إلا بعد أن أضافت مستغربة:
"السجن، السجن الذي حطمته الثورة.. لاباستيه"
لم يكن هناك سجن أو مايدل عليه. السيارات تمر بالعمود لامبالية، والناس رائحة وغادية. المبالي الوحيد في تلك اللحظة بتلك الجدران المعتمة الغائبة ومعها الجموع الباريسية الهائجة ثلاثة، أنا وفرانسواز إبنة الشيوعي العنيد التي تعمل الآن في صحيفة رفاقه، وكتبنا التي قرأنا فيها أخبارسقوطه صغاراً. وأذكّرها بالعذراء الحمراء التي نفيت إلى ما لاأدري من جزر، فتلفظ الإسم فورا. وأذكرها بالحانة التي بعد أن حطم الجنود المتاريس وتدفقوا، خرج منها شاعر ذاهل ووقف في صف الشبان الثائرين بثيابهم وقبعاتهم وبنادقهم العتيقة وهتف "تحيا الثورة" قبل أن يحصده الرصاص مع من حصد، فتهتف "هذا مشهد من رواية البؤساء".
نعم البؤساء، البؤساء هم من حطموا الباستيل، ثم سحقتهم الملكية العائدة الثقيلة الأرداف وبددت الكومونة، ولم تبقِ أثرا للباستيل. عمود! أهذا كل ما يبقى من الثورات؟
لوحة على جدار وعمود! لابد أن فرانسواز لم تدرك آنذاك خيبتي وانا أتمتم بيني وبين نفسي:
"كم تحتاج هذه الشعوب من قرون لتثبت في الذاكرة ولو مرة في العمر صورها وهي تحطم سجنا وتخوض معركة؟"
كل ما في باريس الحاضرة لايمحو سيول البشر الثائرة والصارخة فقط، بل ويمحوني أيضا، أنا الباحث في أي مكان أذهب إليه عن المكان الذي مضى، عن أثر يقول أن هاهنا عاش الناس، أحبوا، قاتلوا، ماتوا. وتحت هذه الأشجار نفسها تجولوا وجلسوا وتطلعوا إلى السماء ذاتها.
في أول نهار باريسي لي، خرجتُ حذرا قبل أن تأتي وتأخذني من الفندق الضيق الغائص مثل سرداب تحت مستوى الشارع. لم أبتعد كثيرا. اتخذت مكانا لي بين الموائد الخالية على رصيف مطعم لأتناول فطوري. أحاول قراءة اسم الشارع، واسم الكنيسة على الرصيف المقابل، وأتعرف على أسماء أشجاره، كأنني أحاول معرفة في أي نقطة أنا، وكم يبعد عني ذلك الحي الشهير بفنانيه

وبؤسائه وشعرائه، وذلك المصنع الذي خرج منه جاك بريفير مبكرا ليقول لرفاقه "اليس خسارة أن نمنح هذا النهار الرائع لرب عمل بطين؟"
لم تلفت نظري الطوابق العليا، ففيها يتمطى الآن موظفون ذوو عيون بلون التبن، وشعور ملساء كأنما غطسوها في براميل دبس، وقمصان منشاة تصدر طقطقة كلما التفتَ أحدهم إلى الآخر. ما لفت نظري هم عمال جمع القمامة المرحون بأرديتهم الشبيهة بأردية مهرجين في سيرك، وهم يلاحقون الحاويات البطيئة بالأكياس والبراميل.
عمال باريس، عمال الكومونة، وأي كومونة في العالم ما زالوا موجودين، ولكن غابت تلك الوجوه المكفهرة والقبضات الحديدية الشبيهة بالمطارق، وغاب اولئك المثقفون القادمون من الأرياف بمعاطفهم الرثة ونظراتهم الودودة وأصواتهم المبحوحة. ربما لم يعد أحد يتذكر الغناء القديم إلا عجوز ينحني الآن في عتمة بار ويحدق في العابرين، ونسمات رخية من ماضيه تتخلل شعره الأبيض المتهدل على كتفيه.
على تلة مونمارتر فكرتُ بقصر الحمراء وزرقة سماء غرناطة وصرخات طيور السنونو تمزّقها قبل غياب الشمس بقليل، وتحت كل هذا حي البيازين. وفكرتُ بصوت عال ونحن نصعد التلة بصعوبة إلى حيث يتجمع السائحون لرؤية برج إيفل:
"أتعرفين لماذا كان سكان هذه التلة يغضبون ويقيمون المتاريس ويقفون وراءها ويطلقون الرصاص على جيش الامبراطورية من جيل إلى جيل؟ لأنهم من مكانهم المرتفع هذا كانت تستفزهم حتى أعمق أعماقهم باريس النهمة، باريس ذوي القبعات العالية والنساء الملتمعات بالريش والعربات الفاخرة. سكان البيازين كانوا يغضبون أيضا حين ينظرون إلى الأعلى، أما هنا فالوضع مختلف، لقد غضبوا لأنهم نظروا إلى الأرض، إلى الأسفل"
لاأعرف إن كانت فهمتْ ما أعنيه بالبيازين مثلما عرفتُ أنا ما تعنيه بلا باستيه، إلا أنها سألتْ:
"وما وجه الشبه؟"
"الشبه في المفارقة وليس في التماثل، فأنتم نظرتم إلى ما تحت أقدامكم لتقوموا بالثورات، أما نحن فما زلنا نتعفن في القاع، في حي البيازين، حي الفقراء المغمورين، نخشى أن نتسلق التلة خوفا من مصير سكان مونمارتر الذين أبادتهم المدافع وحولت تلتهم إلى مرفق سياحي"
لايقيم الفقراء فوق المرتفعات عادة إلا إذا كانوا مطرودين من حقولهم وبيوتهم، أما في الأحوال المألوفة فهم ينحدرون متواضعين مثل المياه، ويقيمون في قعر الوديان أو قيعان المدن أو على أطراف الصحراء، ويذهب إليهم الأثرياء أحيانا ويعتلون المرتفعات ناظرين إلى الأسفل بالمناظير المقربة وعدسات التصوير، مبتهجين وهم يجلسون على الشرفات برهافة أرداف نسائهم وخفة النسائم الرطبة التي تجلب إليهم عبق أشجار الصنوبر والأرز.
ربما كنتُ أفكر بنفسي، أنا الناجي من تلك العصور، أنا الذي لم يجد الشجاعة ليقف في صف سكان البيازين والحارات السفلية حين كان ينهال عليهم رماة قصر الحمراء بالسهام، ربما كنت أفكر بما سأقول حين تأخذنا فرانسواز إلى بيت لوك الريفي المتصدع بجدرانه الخشبية، ويكون الوقت مساء وموحشا في هذه الزاوية من العالم، بينما تلتمع شوارع باريس بالمطر والأضواء، وتزدحم بالمارة، وتشع أضواء شحيحة في حي البيازين، ولا يجرؤ سكانه حتى على النظر إلى الأعلى.

* * *

تواصل السيدة آن حديثها، ويواصل إيف تمتمته الصامتة مأخوذا بكل كلمة تتساقط، متناثرة أو خفيفة مثل ريشة تهبط في الهواء الساكن.
وتمضي أكثر من ساعة بلا مفاجأة منتظرة. كانت بي رغبة في سرد القصص لا في الإندساس بين الأمواج البشرية الهائجة. وفكرتُ؛ سأترك الأخت الصغيرة الآن مع إخوتها:
"هنا في هذه البلاد قصة شبيهة بحكاية الإخوة السبعة، قصة البجعات السبع. هل سمع أحدكم بها؟"
انتبهتْ إليّ عيون الحاضرين، وترك حتى السيد إيف عادة التمتمة، وعاد لوك من تأملاته النابوليونية، فواصلت حديثي:
"..في بلاد الشمال البعيد، بعد سمائكم بأميال قليلة، تطير سبع بجعات كانت سبعة شبان قبل أن تصيبهم لعنة الساحرة زوجة الأب، وتحوم البجعات حول القصر بعضا من الوقت قبل أن تصاب باليأس وتحلق عائدة إلى الغابة، بينما تنهمك أختهم الصغيرة في نسج الثوب الأخير. تقول الحكاية المحلقة في سماء الأطفال دائما؛ كل شيء يعتمد على صمتها وصبرها، فعليها أن تجمع أعشابا كافية وتنسج سبعة أثواب لإخوتها من دون أن تكلم أحدا، وعندئذ فقط تستطيع إنقاذهم وإعادتهم إلى حالتهم البشرية. تماما مثلما كان حال مريم في قرآننا حين نذرت للرحمن صوما ولم تكلم إنسيا.
الأمرُ نفسه حدث لتلك الأخت الصغيرة صاحبة الرغيف، فهي لم تهنأ بالخلاص من ضريبة الدم، لأن أمهاتنا سرعان ما أخبرننا بظهور أخت الغول الذي تدحرج رأسه. افتقدته بعد أن طال غيابه، وبدأت جولة واسعة في الغابة تستقصي أخباره. وتصل، وكأنما بقدر محتوم إلى بيت الإخوة. وبعد أخذ ورد مع الصغيرة المطمئنة إلى هذه العجوز المتملقة، تخبرها بما حدث، فتسرّ الغولة أمراً؛ تقرر أن تهديها سبعة أحذية جديدة بالصيادين، وما أن يضع الإخوة أقدامهم في الأحذية حتى ينقلب حالهم، ويتحولون إلى ثيران عجماء، لاتملك إلا دموعا تتساقط من عيونها لايفهم أحد سببها سوى أختهم الصغيرة.
البجعاتُ السبع نوع من العجماوات أيضا، ولكن مصيرها أن تحلق في السماء في انتظار أن تكمل الأخت نسج الأثواب حتى آخر ثوب، أما الثيران الأرضية فمصيرها أن تتجول في البلاد كثيرا قبل أن تهتدي الأخت الصغيرة الصامتة إلى من ينقذها"
عندما وصلتُ إلى هذه العبارة الأخيرة، حدث شيء لم يكن متوقعا حتى تلك اللحظة، بدأنا نسمع تساقط قطرات مطر وأصواتٍ مكتومة على ألواح السقف الخشبية. ابتهج السيد إيف بلا سبب واضح ونظر إلى زوجه، فندت عنها تنهدة قصيرة. وخرج الغازي من شروده وعلق ساخرا:
"لابد أن عجماواتك الآن يبللها المطر، في السماء وعلى الأرض، لم أفهم مغزى كل هذا!"
قلتُ:
"ولا أنا، هذه أخيلة لاتتحرك إلا حين نقترب من الغابات. يخيل إليّ أنها قصص نسجتها الأمهات الفلسطينيات والاسكندنافيات لمقاومة تأثير الغيلان والسحرة على الأطفال، هي تعاويذ إن شئت"
"وهل نحن بحاجة إلى تعاويذ؟ لقد كبرنا على هذا"
"نحن بحاجة إلى نذور، إلى صمت وصبر"
ونظرتُ إلى بقية الذين تابعوا التعليقات، إلى فرنسواز ولوك وإيف. كانوا يحدقون كمن ينتظر تفسيرا. إيف هوالوحيد الذي يبدو أنه فهم رغم أننا تحدثنا بالعربية، فعاد إلى نظرته الضارعة، وعدتُ إلى التربيت على يده برفق متذكرا المشهد الأخير في قصة البجعات السبع، مشهد الإخوة الذي عادوا إلى طبيعتهم البشرية ماعدا صغيرهم. حين ألقت عليه أخته ثوبه قبل أن يتسنى لها إكمال نسج ردنه، عاد جسده إلى حالته البشرية باستثناء ذراع واحدة، ذراع ظلت على هيئتها ؛ جناح طائر. هذا هو اللغز الأخير الذي لم أفهمه حتى الآن.
في طريق عودتنا إلى البيت ومنتصف الليل يقترب ظل الجميع صامتا. لوك يقود السيارة ويعود إلى الحديث عن مناقشاته الحامية مع أعضاء حزبه وقد نسي كل شيء عن الثيران والبجعات، والغازي

يراقب أشباح الأشجار وهي تتراجع أمام أضواء السيارة، وفرنسواز بيننا تحدق في الطريق المعتم وتربت على كتف لوك. الليلُ حالك، وأشجارُ الغابة تتطاير عائدة إلى الوراء كلما تقدمنا.
عندما تجاوزنا البوابة الخشبية، ودارت السيارة ثم توقفت في الفناء الصغير، ومضينا إلى الداخل، أحسستُ أننا سنجد السيد إيف وزوجه المسنة في انتظارنا، وذلك الصغير الذي تركته الحكاية منفردا بذراعه التي ظلت على شكل جناح طائر، وتلك الأخت الصغيرة الراحلة مع ثيرانها على الطرقات.
إحساس طاريء ربما تخلقه ألفة غير منتظرة مثل الألفة التي شعرت بها في قصر الأقزام ذاك.

آبار أم الزينات

لم تخف سونيا دهشتها وأنا أتمتم بشيء عن الحرب المضحكة التي خاضها الحمقى في هذه الغابات:
"كل الحروب مضحكة، إذا أردنا الحقيقة، فبعد أن تنكشف الفظاعة بكل صورها، وتبلى العظام التي علقت بين الأعشاب والأشواك، لاتظل سوى خفقات الريح بين الأوراق اليابسة"
فعلقت وهي تتناول نظارتها وتواصل التقدم ساحقة أغصانا جافة:
"تبقى الحسراتُ أيضا، إنني أسمع أحيانا، وأنا أقف وراء النافذة، أصوات الأماكن التي فقدنا"
حدث هذا بعد أيام قليلة من وصولها إلى البيت الريفي. لم تشارك في ساعات السجال الطويلة، وفضلت أن تنطلق وحيدة أحيانا في طرقات الغابة الضيقة، واستكشاف هذه الأجمة أو تلك، والعودة بين الحين والآخر بأوراق شجرة أو زهرة غريبة زاعمة أنها مما كان ينمو في تلك الأيام.
"هذه هي المرة الأولى التي أعود فيها إلى هذا المكان، تماما مثلما عدتَ أنتَ إلى أم الزينات، كأنني أفتش مثلك عن حكايتي. من يسمعني الآن لو رويتُ؟"
"حتى لو سمعكِ الفراغ، سيكون هنالك دائما شخص مثل السيد إيف يتمتم صامتا الكلمات التي يسمعها مهما كانت اللغة التي تقال فيها، ستتعرفين عليه قريبا، هو غير كل هؤلاء الثرثارين في المطاعم والمقاهي وتحت المظلات"
هزت رأسها، وأعادت نظارتها، غير مصدقة بالطبع:
" نصف المعتوه ذاك ؟ أم زوجه المسنة التي وزعت أولادها بين العواصم كمن يوزع أوراق اللعب؟ وصفكَ لبيت الأقزام هذا يحدثني كم أنك خرافي إلى حد بالغ، شرقي بتمامه وكماله".
وتوقفتْ، جالت بنظرها كأنها تستطلع منفذا لنا نواصل طريقنا خلاله. لم يعد الطريق أمامنا واضحا، ربما منذ زمن تلك الحرب اللعينة، أو قبل ذلك بدهور. تساقطت جذوع أشجارهنا، تحطمت أغصانها الوبرية وسدت الطريق، وتسلقتها نباتات لزجة الأوراق، عنكبوتية مثل شبكة صيادين مهملة تقبض على عتمة وجذوع منخورة.
هذه هي المرة الثانية التي أسمع فيها هنا كلمة شرقي، وإن في سياق آخر. المرة الأولى جاءت حين أغلقت فرانسواز جهاز التسجيل وخرجنا ثلاثتنا إلى حديقة الأعشاب المهملة حيث كان لوك على مقعد من خيزران يتصفح أكوام الصحف التي لاتفارقه منذ أن غادر البرلمان الاوربي، فبعد أن خرج بفكرة مقاطعة منتجات المستعمرات الصهيونية في الضفة الغربية، أخرجه زعيم حزبه الليبرالي من قائمة المفضلين.
آنذاك قالت فرانسواز، كأنها تستكمل حديثا دار في مكاتب صحيفة أو في مقهى أثري تكثر فيه النساء، وليس ردا على إشارتي العابرة إلى الوجود في نظر الشرقي وأنا أتحدث عن العزف على ثلاث آلات موسيقية هي الماضي والحاضر والمستقبل فيتحول الوجود إلى شجرة مسرات:
" ولكن الشرقي مازال لايستطيع الإكتفاء بامرأة واحدة، إنه يتزوج أربع نساء"
وومضت في عينيها النائمتين وهي تنظر إليّ لمعة جمعت بين الخبث والمداعبة. وأصيب الغازي بالعدوى. وشاركتهما الخفة غير جاد:
" ويقال أن المرأة هنا تمتلك من الأزواج قدر ما تستطيع، أو ماملكت إيمانها حسب تعبير فقهائنا"

الشرقي خرافي، أو صانع خرافات، يحتفظ في خبائه أو قصره بأربع نساء دائما. أهذا هو كل ما يتبادر إلى الذهن الغربي، حتى وإن وجد أمامه من يعنيه بتهوفن الحريص على الإصغاء حتى في صممه، والدخان المنبعث من متاريس باريس، والنور الملتمع من الداخل في لوحات فنان الفلامش العجوزالشهواني رمبرانت؟ أم أن الخرافي هو من يقيم تمثالا من البرونز المعتم للملك الأحمق جودفروا تحت شمس ساحة البرلمان في بروكسل رافعا رايته على رمحه، ويكتب على قاعدته النحاسية المخضرة، أول ملك للقدس، مفكرا بالغزوات المقبلة؟
"سونيا، لاأريد أن أقلل من واقعية هذه الغابات وتلك النهارات الباردة المعتمة، وأكاد ألمح مع كل خطوة أثرا لحذاء جندي ألماني، ولكن لابد أن نرفع أمام كل هذا مرآة صاحبنا برسيوس الذي قطع رأس الميدوزا عند سفح جبل أثينا ناظرا إلى صورتها المرعبة في صفحة درعه البرونزي. كلامنا عن الماضي، مثلما حدثنا كالفينو، قد يقع في شرك الحجر، نظرة ميدوزا، إن لم ننظر إليه مواربة. أنا لاأواجه الماضي مباشرة، انا أراه عبر صورته كما تتجلى في الدرع المصقول، هكذا كتبتُ أطفال الندى. كنت قادرا على السخرية والعزف على عدة آلات في وقت واحد معا حتى لانتخرط في العويل، فيبكي معنا العالم ليلا ثم ينصرف إلى شؤونه في نهار اليوم التالي"
حركتْ سونيا غصنا بحذائها وهي تواصل استطلاع الطريق، وهمستْ :
" حين أتذكر، يحدث معي العكس، أريد من الصور الشفافة السائلة كأنما في قدح هائل أن تتصلب، سيكون فيها العزاء حتى لو تحجّرتْ وتحولت إلى تماثيل رخامية، ألا تعجبك التماثيل اليونانية ؟ بلى، كلنا ورثنا هذه الرغبة في استنقاذ الماضي، الشفافية تجرحني، الشفافية تعني أنني لاأستطيع القبض على صورة أخي الغائمة، ولا ذلك البيت الذي تظلله أشجار التنوب، ولا على صورتي أنا أو صورتكَ "
عند هذه العبارة الأخيرة، بدأت تتناهى إلينا دقات أجراس كنائس متباعدة تعلن وقتا أو عودة إلى وقت. كانت تجيء من لامكان، وترن في سكون الغابة. وقبل أن أنطق بكلمة، أعلنت سونيا فجأة وهي تستدير:
"هيا نرجع، لابد أنهم يفكرون بنا الآن. قد يظنون أنك مللت من السجال والنقاش، وقررت اختطاف فرنجية والعودة بها إلى بغداد، كما كان يحدث في الليالي العربية"

*　　*　　*

بعد أن عاد الروائي يوسف شريل بسلة مشتريات من بقالة في شارع محانيه إلى بيت العربي الذي أعطوه له مع أمه وأخته وأخيه الصغيرين جنوبي القدس، جلس مع أمه بعضا من الوقت. شربا قهوة، وسألها إن كانت شاهدت عروض فرقة الرقص اليمنية، وبخاصة رقصة العرس، في التلفاز، فقالت أنها رأتها. ثم صمتت، وظلت هادئة للحظات قبل أن تخرج من صمتها:
" قل لي، إلى متى ستستمر هذه الأكذوبة؟"
" ماذا تعنين؟ "

كان خالي الذهن تماما من وجود أكذوبة من أي نوع. فمنذ وصول صبي الصائغ اليمني هذا إلى فلسطين، أي منذ أن زجوه مع أمه وإخوته في مخيم رأس العين، ونجاتهم من الاختطاف أو الموت الغامض، وحتى ارتدائه الزي العسكري وذهابه إلى المستعمرات، كان يسابق الزمن ليصبح من أبناء البلد بأسرع ما يمكن، ولم يعر ما تداوله سكان المخيم عن اختفاء أطفال اليمنيين اهتماما. أطلق شعره، ضفر جدائله، تعثر في طريقه بعيدا عن لكنته اليمنية، غير لهجته، استبدل الخاء والهاء بحرفي الحاء والعين. وهاهي أمه تفتح عينيه:

"ألا تعرف قصة عمتك؟"

وتعلق السؤال في الهواء. العمة التي تعنيها كانت تبعد عنهما مسافة عشرة أمتار في الغرفة المجاورة منكبة على صنعتها القديمة: التطريز. كان يعرف عنها بضعة أشياء، عن حياتها المعتمة، إلا انه لم يعرف ماحدث لها بالضبط. ولم يخطر بباله أن سيأتي يوم تنفجر فيه باكية، وتحدثه بقصة السجن الذي تقبع فيه منذ خمسين سنة، فتحوله إلى راوية، ويقرر أن يغوص في الزوايا المظلمة لحياة اليمنيين المقتلعين من أرضهم ليحلوا محل مقتلعين آخرين.

في هذا الوقت ذاته تقريبا، كان العراقي اليهودي نعيم جلعادي يتناول وجبة غداء عربية أعدتها زوجه راشيل مع أصدقاء له في بيته النيويوركي بعيدا عن مدينة الحلة العراقية وفلسطين بآلاف الأميال، ويتباهى مزهوا:

"هذا جزء من ثقافتنا العربية"

لم يعد إلى الحلة التي غادرها بين النخيل أبداً كما تنبأ والده العجوز "وذيله بين ساقيه" حين هاجر إلى فلسطين، وأخذوه إلى الكيبوتز الزراعي في الجليل الأعلى لأنه ابن مزارع ولايجيد شيئا غيرحفر سواقي المياه بين النخيل. ولكن أبيه كان على حق:

"صحيح أنني لم أرجع جسديا، ولكن قلبي ظل يقوم بالرحلة إلى هناك مرات ومرات"

سأله أحد الأصدقاء:

"قصتك عجيبة، ولو لم أعرفكَ جيدا لقلت أنك اخترعتها، كيف تكون عربيا وإسرائيليا في وقت واحد معا؟"

ضحك جلعادي. ربت بيده على الطاولة للحظات، ثم اتخذ سمة فيلسوف ساخر ولكن بوجه ممتليء:

"لكي تكون عربيا تحتاج إلى شيء واحد، أن تتذكر، أما أن تكون اسرائيليا فعليك أن تنغمر في الأكذوبة، تكذب على نفسك إلى أن تقتنع، ثم تبدأ بالكذب على كل من تلقاه، أعني أن ترى الجرائم الصهيونية وتبعدها عن تفكيرك لأن ضحاياها غيرك. وحتى حين تكون أنتَ الضحية، عليك أن تقول هذه تضحية من أجل الرب. آه .. قتلونا في ألمانيا ولذا علينا أن نقتل الفلسطينيين في الكرمل وننثر الجراثيم في آبار أم الزينات. أي نوع من الكائنات هذا الضبع الصهيوني الذي ضبعنا؟ أتعرف لماذا استوردنا هذا الضبع وهو يصرخ من فوق المنصات الأوروبية، ويلقي القنابل علينا في المقاهي والمعابد في بغداد؟ لأن المزارع التي اقتلع منها أصحابها يجب أن تحرثها يد يهودية رخيصة لإطعام المهاجرين القادمين من كل حدب وصوب، ولأن الدفاع عن الأراضي المسروقة يحتاج إلى مجندين. هذه هي الحكاية كلها. سأروي لك أشياء يقف لها شعر رأسك. أنا شعري تساقط ولن يقف بعد اليوم، وهذه اليد التي تراها مثل قبضة محراث ستكتب ذات يوم قصة هذه الجرائم"

هذه قصص تتخذ طريقها بتلقائية وعفوية إلى حكايتي، وفي منعطف هنا أو هناك سأجد أمي تقف في الظلّ وتراقب العجوز اليمنية السجينة وهي تشرب القهوة، ثم تضع فنجانها جانبا، وكأنما طفح الكيل، فتهز ابنها الصحفي "إلى متى ستستمر هذه الأكذوبة". وتبتسم أمي وتتنهد. فهي لم تكذب على أحد، ولم تنقل إلينا سوى نداءات الفلاحين المشتتين بين الصيافير، ومشهد أم الزينات وهي تحترق، ومشهد السماء السوداء فوقنا يخترقها وابل من الرصاص الأحمر، وساعات الحسرة والكبرياء تحت أشجار اللوز في جنين.

في منعطف آخر، سأجدني صغيراً، منحنيا أقلب عشرات الصورالشمسية لشبان حليقي الرؤوس عثرتُ عليها وأنا ألهو بين كتب مهملة في زاوية من زوايا تلك المدرسة اليهودية في البصرة القديمة، المدرسة التي أعطوا فيها لكل لاجيء وأبنائه غرفة خشبية واحدة، وغادروا من دون يلتفتوا إلى الوراء. لابد أن نعيم جلعادي كان أحد هؤلاء الشبان الذين أصابتني نظراتهم الجامدة ورؤوسهم الحليقة بالخوف والحيرة. وقال لي رجلٌ كان شديداً في معاملة الصغار ويكثر من الصلاة حين عثر عليّ أتناول الكتب الغريبة الحروف وألقيها بلا مبالاة:

"لاتعبث بها، حرام"

قلت:

"ولكنها كتب يهودية"

فانتزع كتابا من يدي وآخر، وكرر:

"حرام. حتى لو كانت مكتوبة بالعبرية، ففيها اسم الله"

* * *

في هذا الوقت الذي كان فيه نعيم جلعادي يروي لضيوفه ويشير إلى قبضته الشبيهة بقبضة محراث، انطلقت سيارة عسكرية صغيرة على شاطيء غزة تحمل المجندة الصهيونية يونيت برسيفال وصديقتها، والضابط الذي دعاهما لزيارته، وعدد من الجنود الذين ما زال حليب أمهاتهم على شفاههم، ومازال بعضهم يتخبط في حذائه العسكري الضخم الواسع.

"بدا الأمر كما لو أننا حكام العالم"

بهذه العبارة بدأت يونيت في مقهى لندني تستعيد هذا المشهد بعد أن تغضنت جبهتها واحمرت زوايا عينيها، وبدا كأنها حركت طويلا موقدا خمدت جمراته إلا من لمعات ضئيلة بين الرماد:

"هذا الساحل الجميل ساحلنا، وغزة لنا، وحين انعطفنا إلى الصحراء بدا الأمر رائعاً. كنا سادة الكون في سيارتنا الصغيرة"

ثم يدخل المشهدَ شيءٌ غير متوقع، عجوز فلسطيني يجلس على أحد الكثبان. بالطبع هي لم تشر اليه حتى هذه اللحظة إلا بالصفة التي اعتادت عليها، أي كونه عربيا. لم يكن العرب في المشهد الذي عاشته ونشأت فيه منذ قدوم عائلتها البولندية من باريس سوى أناس اعتادوا العيش هنا في اسرائيل من قبل. لم تسأل نفسها أبداً كيف حدث وأن عاش هؤلاء هنا، لأنه كان أمرا هامشيا بالكامل:

"يشبه تفكير الإنجليزي بالغجر المهمشين إلى درجة أنك لاتنتبه إلى وجودهم"

وبدت غضون وجهها أكثر عمقا مما تبدو عليه:

".. هم ليسوا جزءا من مشهدكَ الفكري والعاطفي"

قلتُ مصححاً:

"ليسوا جزءا من الوعي"

"بالضبط، ليسوا جزءا من الوعي، شيء تعرف أنه موجود، ولكنه لايدخل نطاق وعيك. هذا كل شيء"

" ألم يكونوا يحضرون حتى كصور؟"

"بلى، بلى، أذكر انني حين كنت أتجول في المناطق العربية أحيانا كنت أنظر وأفكر، إلا أن وجود هؤلاء بدا لي بلا تفسير، بدا سراً يثير بي رغبة في معرفة هؤلاء الناس، رغبة لا أتجاوز أغصانها

المتشابكة. من الصور المتخيلة التي سجلتها في ذهني، صور البدو الذين اعتادوا المجيء إلى حيث نسكن في موسم الشتاء. لم أذهب إلى جنوب أفريقيا، إلا أنني استطيع تخيل وضعية مشابهة؛ النظر إلى شيء ممنوع، شيء غير مسموح لك الاقتراب منه، شيء تخشى أن تجربه وتفهمه لأنه سيأخذك خارج جماعتك، ومع ذلك تشعر بالفضول وتود أن تفهم. ماذا تتوقع من طفلة تعلمت أن إسرائيل كانت أرضا خالية، لم يكن هناك أحد، خالية ومهملة منذ أن خلقها الله كما قال البريطاني السمج لويد جورج، وجاء الرواد، المستعمرون الصهاينة، وبدأوا العمل في الأرض وتحويل الصحراء إلى حديقة، وهكذا صارت ملكا لهم لأنهم حرثوها. كان هناك أناس متناثرون في البداية، وقيل لنا أنهم باعوا الأرض للرواد"

"أي كان هناك عرب.."

"نعم، هذه هي القصة التي قيلت لنا في المدرسة والصحيفة والمنتديات ومهاجع الجنود"

في مكان ما من لندن، كانت مجندة أخرى، في هذه اللحظة نفسها، تتذكر وتكتب لي في رسالة طويلة:

".. في الثلاثينات لم أكن واعية كيف سُحقت الإنتفاضة الفلسطينية بوحشية. كان وجود السكان العرب بالنسبة لي يبدو نائيا وشبحيا إلى حد ما، لامكان له في وعينا. واستطيع الآن أن أتخيل أمراً شبيها؛ أتخيل أطفال البيض في البلدان المستعمرة الأخرى، في الهند وبلدان افريقية أخرى، وهم يكبرون ولا يلحظون وجود السكان الأصليين، إلا خدما أو عمالا يدويين أو غرباء يلمحونهم من نوافذ عرباتهم. كانت لنا عرباتنا العسكرية وحافلاتنا، وكنا نلمح الغرباء من نوافذها"

كانت هذه هي الألمانية حنة براون. وقبلها تحدث ميرون بنفنستي عن الخريطة البيضاء، عن فلسطين في أذهان اليهود الغرباء وهو يتملى المشهد الذي تغيرت تضاريسه وأسماؤه؛ يجلس بن غوريون منذ اللحظة الاولى بصلعته ولمة شعره منتصبة على جانبي جمجمته مثل قرني الشيطان نفسه، ويستدعى فريقا مازال رذاذ البحر يبلل قبعاته وعطن جيتوات أوروبا يتسلق ياقاته، ويرسله إلى صحراء النقب ليمحو أسماء حجارتها ووديانها وآبارها وتلالها.

لم أقاطع بهذه الصور حركات عيني يونيت ويديها وهي تقلب الرماد.

" وأنتِ، هناك في أرض ركّبوا عليها هذا السيرك، هل التقيتِ بفلسطيني؟"

"لا.. أبدا .. لم أعرف بوجود الفلسطينيين إلا بعد حرب الأيام الستة، هذه الكلمة لم يتلفظ بها أحد قبل ذلك. كان هناك عرب اسرائيل، ولكنهم ليسوا اسرائيليين. إدراك من هذا النوع سجلته بلا تساؤل. وجاءت الصدمة الأولى بعد الحرب. في طريقي المعتاد من تل أبيب إلى رامات غان، كان هناك فلسطينيون ينتظرون على جانبي الطريق من يلتقطهم للعمل، نباتات فطر مبللة تظهر بعد ليلة ممطرة. وأتذكر أنني كنت أمر بهم، أفكر بمصائر هؤلاء الناس، بحياتهم، وكيف اختلطت بحياتنا، أفكر بمجرد صور من دون أن أمنحها اهتماما كافيا. الآن حين أعود إلى الوراء أدرك أن شيئا كان يلحّ علي طيلة الوقت؛ إننا في حرب من أجل البقاء، إننا نتعرض لهجوم، ليس لدينا خيار، لاخيار آخر. لم أعرف أن هناك طريقة أخرى للنظر. من يفكر بطريقة مختلفة كان يعتبر إما أنه جاهل أو أنه لايعرف، وكفى. باختصار لم أكن أريد أن أعرف، وكثيرا ما تشاجرتُ مع صديق لي في الجيش كان يساريا إلى أقصى الحدود شجارات حادة؛ كان يلح على أن البشر ليسوا نباتات فطر تنبت فجأة من لامكان"

قلتُ مستعجلا استجلاء صورة الحاضر في ذهنها، ناظرا إلى أشياء تتحرك، ومشاهد تتوالى؛ لندنيون يهرعون إلى محطات القطارات الأرضية، يهبطون مئات الأمتارسلالم حديدية تغوص تحت الأرض، يتوزعون على المقاعد، لايعنيهم إن كان جيرانهم من فصيلة القطط أو جراء الثعالب، أو لايعنيهم أنهم هم أنفسهم قد يكونون نوعا من الخلندات المتراكضة في ظلمات الأنفاق:

"وها أنتِ الآن خارج هذا السيرك.."

" لم أكن أريد أن أعرف. التجربة هي التي تزيح ما في الطريق مثل نهر جليدي ينحدر ويجرف كل ما يصادفه"
"حتى الماضي؟"
" حتى الماضي. وإلا لماذا نحكي الحكايات؟ أعتقد أننا نحكي لتصفية حسابنا، لننبعث مجدداً. لايغيّر السلوك مثل التجارب، وقد دخلتُ التجربة التي خشيت دخولها أو لم أفكر بوجودها وأنا في تلك السيارة العسكرية ونحن نجوب الصحراء"
وتواصل حنة براون الكتابة:
"حين أقمنا في حيفا أخيرا بعد أن تنقلنا كثيراً بين تل أبيب والقدس وحيفا تبعا لأماكن عمل والدي، مهندس شبكة الهواتف للبريطانيين، أصبح الفلسطينون واقعيين بالنسبة لي. كانوا جيرانا لنا، ونشأت بيني وبين كبرى بناتهم علاقة صداقة، وترددتُ كثيرا على بيتهم، ودائما كنت أعامل بود رغم قلة الكلمات التي كنا نستطيع تبادلها. كانوا قادمين من قرية الطيرة القريبة من حيفا. المفارقة التي لاأستطيع نسيانها هي أن أول منصب تعليمي سأحصل عليه لاحقا، كان في هذه القرية ذاتها بعد أن اقتلعوا سكانها وذبحوا من أصر على البقاء، وألقوا فيها كما تلقى النفايات بمهاجرين من بلغاريا وتركيا. أدهشني جمال المدرسة التي هجرها الفلاحون. كان الشائع لدى غالبية اليهود القادمين على ظهور السفن أن سكان القرى العربية أميّون جهلة مع استثناءات قليلة!"
وتتوقف يونيت عن تحريك أصابعها. وتبدأ ملامحها بالتغير كأنها لاتعود بفكرها إلى تلك الصحراء فقط، بل تنتقل إليها جسديا؛ تضيّق عينيها، تتبين كائنات ضئيلة تتحرك عند الأفق، تزم شفتيها، تحني رأسها، تواجه رياحا تهب، تباعد بين خصلات شعرها الرمادية، تهمس:
".. كان هناك، هذا العربي العجوز، وشاهدناه على أحد الكثبان الرملية، فهتف الجنود.. دعونا نصطاده .. دعونا نصطاده، وتسابقوا نحو الكثيب، وأمسكوا به، وجاؤا به، وحشروه في كيس من الخيش وربطوه، ثم ألقوا بالكيس على أرضية السيارة. وشاهدتُ يد العجوز تمتد من فتحة في الكيس وتمسك بقدمي، من الواضح أنه كان يستعطفني، إلا أنني لم أفهم مايقول بعربية أسمعها لأول مرة. كان يستعطفني، وأنا أجلس متبلدة تبلدا تاما. لاتنس أنهم كانوا يعيدون ويكررون علينا ليلا ونهارا أن جيشنا أكثر الجيوش تمسكا بالأخلاق، والأشجع والأصدق، وكانت هناك قصص ونوادر عن العرب، فهم جبناء، مخيفون، قذرون، أغبياء. هذا هو محتوى مداركنا. كان العجوز ينشج بصمت، وكنت متحجرة بالمطلق. لم أعرف ماذا أفعل. لم أكن راضية فحسب. أذكر بعد ذلك أننا وصلنا إلى مهاجع الجنود، ثم ذهبنا إلى العشاء، وشاهدته تحت السلم مربوطا ووجهه إلى الجدار. بعد ذلك في وقت متأخر، حين خرجتُ، وجدت جنديا لايتجاوز العشرين من عمره ينهال عليه بالضرب على مرأى مني. كان يضربه بعنف"
وأنزلت يونيت يدها، تركت خصلة من شعرها تتأرجح بين عينيها، وأدارت وجهها جانبا، فشاهدتْ عابرين تحت مظلة واحدة يهمان بعبور الشارع إلى الجهة المقابلة، تعلقت نظرتها بهما:
"وكانت هذه هي نهاية المطاف بالنسبة لي. بعد ذلك لم يعد ممكنا ألا أفهم، لامجال. كانت هذه هي البداية. هربت قبل انتهاء مدة تجنيدي، لم أعد أحتمل الأمر"
الخلنداتُ يعميها ضوءُ النهار كما يقال، ولكن بعضها قد يتكيف مع الضوء، ويتجول في الحدائق اللندنية آمنا مطمئنا، وقد يلفت نظركَ أنه يتناول القهوة أو يضحك جالسا على الرصيف، أو يتأمل أسماكا في بركة تجمدت مياهها واقفا وياقة معطفه مرفوعة.
وزمّت يونيت شفتيها الرفيعتين وأومأت:
"لم يعد يهمني الأمر، ليكذبوا ماشاء لهم الكذب، أما أنا فقد وضعت حدا لأكذوبتي"
وتضع حنة لمستها الأخيرة على رسالة ذكرياتها:

"في العام 1956، كان معظم الإسرائيليين مبتهجا بحرب لاتفسير لها مهما جمح بك الخيال. كانت عدوانا صريحا، ووجدتُ أنا وزوجي أن انتقاد هذه البهجة الحمقاء بدأ يعزلنا، ويعيدنا إلى الأيام الألمانية. وذات صباح طرق بابنا مبكرا على غير عادته ساعي بريدنا الهندي، خريج جامعة مدراس، وهمس بخوف، هناك من يفتح رسائلنا البريدية ويراقبها، وهنا سقطت آخر حبة رمل في قاع ساعتنا الرملية، لم يعد أمامنا سوى الهجرة"

* * *

جلعادي يعود إلى الحديث مع ضيوفه بعد أن افترشوا زاوية في الصالة المكتظة بالمقاعد، وبدأوا حفلة الشاي المعتادة:

".. كان عمري اثني عشر عاما حين قُتل الكثير من أصدقائي العراقيين اليهود في فرهود بغداد في العام 1941. غضبتُ واضطربت، ولكن ما لم أعرفه آنذاك أن البريطانيين هم الذي أثاروا الفرهود بالتعاون مع الحكومة العراقية آنذاك. بل وشاركوا في إطلاق الرصاص حسب ما روى لي ممرض أرمني جاؤا ببعضهم جرحى إلى المستشفى، ولم يكتشف هويتهم إلا بعد تخديرهم ورؤية علامات كتائبهم العسكرية موشومة على أجسادهم. قبل ذلك أطلقوا جنودهم النيباليين ذوي العمائم العمودية والذيول، الكركة ،على سوق العشار التجاري في البصرة، فأثاروا الشغب وحطموا واجهات المتاجر والعربات ونهبوا وضربوا المارة. كانت أياما شدّوا فيها العراق على سفود ممدود من الهند إلى لندن مرورا بفلسطين وقبرص ومالطا، وعليك أن تفهم من الذي يُشوي ومن الذي يأكل.. اللعنة"

زوجته راشيل تركع على ركبيتها أمام الموقد تحت النافذة تنظم أكواب الشاي الصغيرة على صينية نحاسية. يشير إليها، فتتناول الإبريق من فوق الجمر، وتبدأ بصب الشاي متمهلة .

سأل احد الضيوف، وكان شابا مسترسل الشعر واللحية له مظهر جون لينون:

" لم تفهم آنذاك بالطبع، مع وجود كركة نيبال وسيخ المعبد الذهبي وكولونيالات بلفور وتشرشل وبيفن والهاربين من الجيش العثماني في طبخة واحدة. متى بدأت تفهم؟"

"هذه حكاية طويلة بطول رحلتي، من اسم عائلتي الذي غيرته حتى يتيسر حصولي على وظيفة، إلى أن بدأت أكتشف الطرق البربرية التي استخدمتها بقالة الوحوش المسماة إسرائيل للقضاء على أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين. في البداية، أوهمتهم حروفُ اسمي بالإنجليزية، من "خلصجي" إلى "كلاسكي"، أنني بولندي، أي أشكنازي، فاستدعوني للمقابلات، ثم اكتشفوا أن وجهي لايناسب إسمي، أو لايشرفه، فسألوا:

"هل تتكلم البولونية أو اليديش؟"

" لا .."

" كيف حصلتَ على الإسم البولندي؟"

هنا ترددتُ، ثم اخترعت جدا بولنديا أكبر:

"جدي الأكبر كان بولنديا، وقيل لي أنه من أحفاد خزر الفولغا"

لم ينفع هذا النسب، أو شكوا أنني أتحايل، وتبادلوا نظرات الريبة، ثم:

".. طيب..سنتصل بك في مابعد"
وامتدت هذه الما بعد سنوات. وأخيرا غيرت اسمي إلى جلعادي، ولم أعد خلصجي. كان هذا منفذي للحصول على الخبز. أذكر أن والد أحد اصدقائي صعب عليه التحول إلى مجرد أداة حراثة في الأرض الموعودة، فأصيب بجلطة دماغية، وآخرذهب إلى قبرص التي ولد فيها ورفض أن يتسول على أبواب الأشكناز. كانوا برابرة، صادروا جنسيات كل القادمين، هل تعرفون اليماني يوسف شريل ؟ قال لي وهو يتذكر أيامه الأولى أنهم أبقوه مع أمه وإخواته رغما عنهم في مخيم رأس العين، وحولوهم إلى إسرائيليين من دون علمهم، ولا حتى باستشارتهم أو طلب موافقتهم، ربما إعجابا بسمرتهم النادرة أو ليتبركوا بهم بوصفهم كما كان يقال سرا أنهم من أحفاد بلقيس الحبشية المقدسة. وهكذا فقدوا جنسياتهم الأصلية، وفتح يوسف عينيه على عجوز روماني بمعطف أسود طويل وقبعة بالية يتجول في أرجاء المخيم سائلا كل من يصادفه، قل لي من فضلك من أنا؟ وفي أيام أخرى كان يشاهد ليلا إمرأة بلغارية تجري عارية وتشتم الاله الذي جاء بها إلى هذه الأرض النائية"
قاطعه الشاب:
"إذن كان هذا هو تحولك الأول، من صهيوني كامل الأوصاف إلى صهيوني بنصف سروال"
ضحك الضيوف، وابتسمت راشيل من زاويتها أمام الموقد، ورفع ذو النصف سروال يده:
"حتى نصف السروال كان مستعاراً من الدولة، وما أن ينقضي النهار حتى تسترده، فأتجول في الليل عاريا. من يسرق الفلسطيني، لايترك غيره في حال سبيله. هل تعرفون أن بقالة الوحوش هذه هي أول من شن الحرب الجرثومية في الشرق الأوسط؟ هذا ماعرفته، وعرفه الفلسطينيون، ولكن لم يصدقهم أحد. في العام 1948، كانت عصاباتنا تفرغ القرى العربية من سكانها بالتهديد، ثم إذا لم ينفع، بقتل العشرات بل المئات من العزل ليكونوا عبرة لغيرهم. وحتى يطمئن رجال العصابات إلى أن العرب لن يعودوا إلى قراهم، نثروا جراثيم التيفوس والزحار في مياه الآبار. وأعلم علم اليقين من مشاركين في هذه الحرب التي لاتليق إلا بالضباع، أن عصابة الهاغاناه وضعت جراثيم التيفوس في نبع رأس العين الذي يمد عكا بالمياه، فانتشر المرض بين سكانها. كانت هذه هي طريقة الاستيلاء على عكا، لم ينفخ الكهنة أبواقهم الخرافية بل نثروا السم في المياه. ونجحت هذه الحرب الجهنمية نجاحا باهرا، فنقلوها إلى ميدان آخر. أرسلوا فصيلا من العصابة نفسها بثياب عربية إلى غزة، وكانت هناك قوات مصرية، فاعتقلت أفراده وهم يفرغون علب التيفوس في خزانات المياه"

* * *

تلك الرائحة التي خلفها العرب وراءهم، اولئك الذي نجوا بحياتهم، هي الذكرى التي لاتزول من ذهن وحواس يوسف شريل. البيت المقدسي ليس مجرد جدران. منذ اللحظة الأولى بدأ البيت يخاطب حواسه، بالتينة الوحيدة، بالقبر الغامض، بالبئر القديمة في فنائه.
كانت لنا آبارنا أيضا، تلك التي عاشت في ذاكرة أمي وانتقلتْ إليّ، وما أن وجدتها تكتب محرفةً في موسوعة فلسطينية، حتى تذكرتُ رنينها على لسان أمي، الهرامس والناطف وشمهورش، أحببتُ ذلك الرنين، وتردد في حواسي كلها، ولكن ليس بالطريقة التي ستتردد فيها أسماؤنا وآبارنا وبساتيننا في حواس يوسف وأمه وإخوته وهو يعود على سلالم لاوعيه أو وعيه على حد سواء هابطا نحو أرض أظهرت غرابتها منذ اللحظة الأولى.

حين دخلتْ العائلة المقتلعة من اليمن لتحل في هذا البيت الفلسطيني، لاحظتْ أن جدران الردهة متآكلة يتساقط بياضها، أرضية غرف النوم مغطاة بفسفساء ملونة، قضبان النوافذ ملقاة على الأرض. عند المدخل ما تزال أكوام الرمل والجص تكاد تسد الطريق، وفي خشب الباب الأمامي ثقب رصاصة. لم يجد أصحاب البيت وقتا للإقامة فيه. كلّ هذا حضور مهدِّد، وبخاصة القبرالذي لم يغادر المخيلة، سواء لجأوا إلى غرف النوم أو جلسوا في الصالة يشربون القهوة، أو انشغلت الأم والعمة بالتطريز. كل هذا يقول أن أصحاب البيت لم يغادروا، فهم في كل هذا، في هذا النصب الذي ينتصب هائلا ويشق الروح.

جاءت هذه العودة بتأثير فضول صحافي حاوره بمناسبة صدور روايته الأخيرة. وقبل أن يواصل الهبوط لاحظتُ أن الصحافي أوقف تيار تداعياته متسائلا عما إذا لم يكن هذا الهاجس غير العقلاني الذي يراوده من مخلفات العقلية الشرقية الخرافية، فأيقنت أن يوسف سيهز رأسه ويبتسم متأملا:

" لك أن تقول ما تشاء، ولكن هل من الخرافة في شيء أنني لا أكون مع ذاتي إلا حين أجلس مع عربي من الخليل على شرفة تظللها أوراق كرمة عنب؟ هناك أشعر أنني أكمل دائرة حياتي الناقصة، أشعر شعورا عميقا أنني أعود إلى عقلي السليم"

صمت للحظات، ثم:

" ساتحدث عن كل هذا، سأتحدث عن فتاة حلمتْ باليمام، أي حلمت بعرسها المستحيل. هذه أغنية يمنية شعبية وليست نوعا من التفكير الخرافي"

حين فتحتْ أمه عينيه، وقالت وهي تحدق فيه وهما يتناولان القهوة:

".. إلى متى ستستمر هذه الأكذوبة؟"

ربما قصدتْ أن اليمني، مثل النمر الأثيوبي، لايغير بقع جلده حتى لو اصطبغ بكل الألوان، إلا أن يوسف أخذ هذه العبارة في اتجاه مختلف؛ منذ الوهلة الاولى التي دخلوا فيها بيت العربي، لم تتغير النغمات التي يبثها، لم يتغيرالسلم الموسيقي، فحتى لو هدمته وحولته إلى تراب، لاتستطيع أن تنسى انك تقيم على أرض ليست لك، وتتعرض لنسيم لايأتي هنا إلا بحثا عن أصحاب البيت. حتى النجوم، حين تظهر، لايبدو أنها تتعرف عليك، إنها تلتمع ولكنها لا تراك. من أنت إذن؟ هذا الشق في الروح قد لاتشفيه حكاية، ولا ألف حكاية، ولا حتى مغادرة البيت عند أول فرصة، وعدم الرجوع اليه إلى الأبد كما فعل منذ سنوات.

كانت العمة تنشج وغضون وجهها تحولها إلى طفلة اكتهلت وعاشت مكتهلة منذ طوفان نوح:

".. قفزتُ من النافذة حافية القدمين..هربت إلى بيت أهلي ليلا..لم أكن بلغت الحلم حتى حين ألقوني في أحضان عجوز مفترس. وطرقتُ الباب، طرقتُ، وهم ينظرون من النوافذ، أمي وأخواتي وأبي .. وصرخ أبي مهددا "عودي إلى زوجك". عدتُ..ولكنهم لم يغفروا الإهانة، شرفهم المهان، زوجوه بامرأة ثانية، وحجروا عليّ ..لم يعد بإمكاني أن أتزوج مرة أخرى"

ربطوها مثل كلبة في زاوية معتمة، وستظل كذلك طيلة عمرها، إلى أن يكتشفها يوسف ذابلة جفت عروقها، ويكتشف معها أنه لم يعد قادرا على البقاء في بيت حجارته حية، وحديقته ما زالت تزرعها الأشباح:

" لاأستطيع النظر اليه إلا من مسافة بعيدة. خاطب هذا البيتُ بي كل جارحة منذ اللحظة الاولى، ربما لأننا من وديان ألفنا فيها سماع أناشيد الأرواح، وسماع استغاثة العروس التي تترك بين الصخور في الظلام أضحية لشيطان أو إله يجيء في غيمة داكنة. لا أحد يسرق الآخرين ويحظى ذهنه بالسلام في هذا العالم. سأروي لك الآن كيف تحول هذا البيت المقدسي إلى جرح بعيد الغور، وقد تسجل عني أنني أول من عذبته وجبات خضراوات مسروقة، وستعذبه إلى الأبد.

بدأ كل شيء بعد سنة من دخولنا البيت. كنتُ في السادسة عشرة من عمري. وذات يوم ظهر عربي في الفناء. كان يرتدي ملابس أنيقة. جاء من بيت صفافا المجاورة، وطلب أن يتحدث مع أبي، وحين

قلت أن لا أبَ لدي، سأل عن رجل البيت، فقلت له، أنا..أنا أكبر الذكور. وهنا قال لي أن هذا البيت كان ملكا لأحد أقربائه ولم يسعده الحظ في العيش فيه، وأنه يريد فقط أن يحرث ويزرع قطعة أرض أمام البيت. لم أسأل أمي، وقلت له "طيب..إفعل ماتريد"

من كان هذا الرجل؟ هل كان مجرد قريب لسكانه أم كان صاحب البيت؟ لاأدري، ولم أكن أريد ساعتها أن أعرف. ربما كان شبحا عائدا، ربما كان هو صاحب القبر، ربما أي شيء آخر مهدد، إلا أنني لم أكن أريد أن أعرف.

طيلة سنتين أو ثلاث، زرع هذا الرجل خضراوات هناك، في البقعة الصغيرة أمام البيت. كان يعطينا دائما جزءا من خضراواته ويحتفظ بالباقي. هذه الخضراوات التي تناولناها، والتي هي ملك هذه العائلة السيئة الحظ، أو الشبح العائد من وراء القبر، أو صاحب البيت نفسه الذي يقدمها إلينا صامتاً، تركت بي جرحا لاسبيل إلى محوه.

حتى اليوم، لاأستطيع النظر إلى البيت إلا من مسافة بعيدة"

* * *

لو كان أحد الحاضرين في بيت جلعادي في تلك الظهيرة ممن قرأ أطفال الندى لهتف مندهشا:

"هذا ماشاع بين اللاجئين الذين أحيطوا بالأسلاك الشائكة في معسكر الشعيبة العراقي. هل يمكن تصور أن يصل الحقد وتبلغ الكراهية حد ملاحقة اللاجئين إلى أقصى الأرض بالسموم؟"

ولكنني الوحيد الذي سمع ماشاع وكتبه معتقدا للوهلة الأولى أن الأمر لم يكن سوى إشاعة ومبالغة في الخوف، لا خططا تفتق عنها ذهن شيطان خارج لتوه من الجحيم والنار تشتعل في ذيله.

".. كنتُ هناك"

ووضع جلعادي كوبه الخالي على طرف الصينية:

".. لا..كفى، اسألي الإخوان أن كانوا يريدون المزيد"

وكررعبارة "كنتُ هناك" قبل أن يصاب بالشرود للحظات ويعود إلى ضيوفه، وقد تربع بعضهم، واتكأ بعض آخر على مساند مطرزة، بينما كان شبيه لينون يتناول نظارته الطبية ويمسحها بمنديل:

".. نعم كنتُ في المجدل، هذا الإسم الكنعاني الجميل لقرية عربية استولوا عليه وعليها، واخترعوا لها اسم "اشكلون"، وخططوا لتحويلها إلى مدينة مزارعين.

بعد أن تركت الكيبوتزالخانق، نصحوني في وكالة توزيع الأراضي المسروقة، أعني الوكالة اليهودية، بالذهاب إلى المجدل. لماذا ؟ لأنني أستطيع كتابة وقراءة العربية والعبرية، وهناك أستطيع أن أجد عملا بأجر مجز في مكتب الحاكم العسكري. وفهمت. فهؤلاء الحكام العسكريون كانت وظيفتهم التسلط على العرب، والمهمة لم تنته كما سأعرف بعد وصولي بقليل. كان على البقالية االتي بدأت تكتظ بالوحوش من كل الجنسيات أن تتخلص من سكان المجدل.

كنتُ هناك إذن، وسلمني الكاتب حزمة استمارات ورقية مطبوعة. التماسات موجهة إلى مفتش الأمم المتحدة تطلب الإنتقال من اسرائيل إلى غزة. قرأت الإلتماس، وبالتوقيع عليه سيقول الفلسطيني أنه بكامل قواه العقلية ووعيه، وأنه يقدم هذا الطلب من دون ضغط أو إكراه. بالطبع لم يكن من الممكن

أن يغادروا من دون إكراه وضغط. كانوا هنا منذ مئات السنين، مزارعين وحرفيين ونساجين، حرمهم الحاكم العسكري ومنعهم من تحصيل قوت يومهم، إلى أن فقدوا الأمل في العودة إلى حياتهم اليومية. هذه هي اللحظة التي وقع فيها بعضهم على التماس المغادرة، أما الذين رفضوا ولو استفوا التراب، فقد سحبوهم بالقوة إلى الشاحنات، وألقوا بهم في غزة.
كنت هناك، وسمعتُ تحسرهم:
" قلوبنا تتألم ونحن ننظر إلى أشجار البرتقال التي زرعناها بأيدينا، نرجوكم، دعونا نذهب ونسقي الأشجارعلى الأقل، لن يسامحنا الله إذا تركنا الأشجار عطشى"
طلبتُ من الحاكم العسكري أن يمنحهم هذه الفرصة. أنا ابن مزارع وأعرف معنى أن تنظر إلى نخيلك يجف ويموت أمام عينيك. ولكنه أصرّ. وصرّ على أسنانه:
"لا.. لا.. نريدهم أن يرحلوا"

وعر الحكايات

حين يُذكر الوعرُ، تذكر معه الحكاياتُ التي أخذتنا إليها أمهاتنا، وأخذتنا إليها انصاص الليالي، وأخذنا إليها في ما بعد التوق إلى أصوات الشجر الذي يهمس دائما بأسمائنا. بعضنا عاد من الحكايات وغادرها مثل ذلك الشاب اليتيم الشبيه رأسه بعرنوس ذرة، حين اختفى من طفولتنا بعد وصولنا إلى معسكر الشعيبة العراقي بقليل، وسافر إلى أخيه عازف البيانو الذي قيل لنا أن عائلة أمريكية تبنته، وكان يرينا صورته مزهوا بين الحين والآخر.
بعضنا ذهب ولم يرجع مثل ذلك الساهم العينين الذي أشفقتْ عليه غولة دخل مغارتها في الوعر وشرب من كوزها ورضع من ثديها، فحوّلته إلى إبرة غرستها في شعرها الكثيف قبل أن يؤاخيه أولادها ويعطوه الأمان، فتخرجه من حالة الإبرة وتعيده إلى حالته البشرية ليواصل رحيله.
لابد أن في الوعر أماكن أخرى تبكي فيها جبينة الآن وهي تغني أغنيتها، ويرقد فيها بين أشجار البطم إخوة وآباء لنا فاجأتهم الطائرات الإنجليزية وطوقهم ألف جندي عند نبع أم الدرج، ويسهر فيها الموتى الخمسة مع زوجاتهم الذين أرداهم قتلى رصاص مستعمرو يكنعام حين فاجاؤهم هاربين من الموت عند مربط خبيزة.
يروي سلمان الناطورمن دالية الكرمل إثر لقائه بعجوز مشقق الوجه، أبيض اللحية، جلس اليه في هذا الوعر تحت شجيرة زعرور:
"يأخذكَ الطريق المنفلت من الدالية شرقا إلى مساحة شاسعة من كروم الزيتون، وهناك إذا انسربتَ يسارا يصعب عليك أن تتخيل أن هاهنا كانت أم الزينات والريحانية، فأشجار الصنوبر حولت الأرض إلى متاهة لاتتبين فيها سوى أحجار ثقيلة هنا وهناك يغمرها الخضار وتتغضن أطرافها عاما بعد عام"
ويكتب جاره سليم الفحماوي بعد عودته من جولته مع زوار الوادي الأربعة:
"حين وصلنا إلى حجارة أم الزينات بين متاهة أشجار الصنوبر، بدأ ناشر الرواية والمترجم يتساءلان إن كان هذا المشهد الشبيه بمشهد يوم الخليقة الأول يمكن أن يدل على وجود بشر أو بيوت. وظل الغازي الذي لايؤمن بيوم الخليقة ولا يوم القيامة صامتا، ولكن مثلي لايتوه عنها ولو غطوها ببحر الظلمات"
وأسمع عجوزالناطور يتحسر وهو يدير حبات المسبحة بين أصابعه:
"حتى الماء نشفوه. كانت حفنة من بير الناطف تطيل العمر عشر سنوات. خفا الله راح البير"

*　　*　　*

كان مختار البلد يوسف العيسى في بيته حين دخل عليه جندي أقصر من بندقيته ومرتينتها الحادة، وأكثر ضآلة من قميصه الواسع وبنطلونه المتغضن، وطلب منه أن يخرج ويمثل أمام قائده ليسلم أم الزينات.

حدث هذا بعد ليلة زخ فيها الرصاص علينا مثل المطرمن كل جنب وطرف، وبعد ليلتين دخلوا، وأقاموا لهم مقر قيادة عند البيادر، وطافت مجموعة منهم بأردان كالحة وأحزمة رصاص لامعة بين البيوت تصرخ وتنبح:

"كل واحد يسلم، ويطلع على البيادر"

ويتذكر العجوزبروية لاتخفى رنّة أسف في صوته:

"كنا نسمع عن اليهود أنهم يقتلون الأطفال ويبعجون بطون النساء الحوامل بالسكاكين، ولم يبق في رؤوسنا عقل حين شاهدنا أول قادم منهم يتنقل من شارع إلى شارع. لم نصدق أعيننا. كنا نعرفهم، من حيفا ومن يكنعام، عاشوا معنا يوما بيوم. لم نصدق إلى أن رأينا بأعيننا"

خرج المختار من بيته وهو يجمع حوله أطراف قمبازه ويربت بيده على عقاله، وقطع الطريق إلى البيادر ليقابل الضابط يهودا ورأسه الشبيه ببسطارعتيق من بساطيرالأتراك تتقلب فيه عينان زائغتان، ودار هذا الحوار:

المختار: أنا المختار، أنا المسؤول عن البلد

البسطار: أين أهل البلد ؟

المختار: أنا أهل البلد، ماذا تريد مني؟

البسطار: أريدهم على البيادر، رح واجمعهم

وسار المختار بين ثلاثة جنود منهم ينادي:

"يا أهل البلد، اطلعوا، سلموا على البيادر"

كان هذا قبل أن يقتلوه عند أم الدرج .

وسأل البسطار المختار:

"البلد كبيرة، أين بقية الناس؟

"الناس خافت من زخ الرصاص، هربت في انصاص الليالي"

"هاتهم واحدا واحدا..وإلا.."

"ياخواجة يهودا، بحق الجيرة والمعرفة القديمة، بحق الخبز والملح، خليهم في بلدهم، خل الذين ظلوا يظلوا"

"لايمكن أن أبق أحدا، عندي أوامر أن لايظل أحد هنا. أنت من أجل المعرفة القديمة يمكن أن تذهب في أي طريق تختار"

وأغلق البسطار شفتيه وعينيه، ولم يعد المختار يبصر منه سوى بوزه .

واستدار يوسف العيسى، واتخذ طريقه نحو أم الدرج، ولكنه لم يبتعد كثيرا، فبعد دقائق سمعنا صوت طلقات الرصاص. هل دحرجوه في النبع أم تركوه على الدرجات الحجرية الزلقة الذاهبة إلى العمق؟ لم نعرف ولم يخبرنا أحد. ولكن يمكنك أن تعرف المكان الذي سقط فيه اسماعيل العرف، الرجل الذي هدم الإنجليز بيته مرتين. سمع شاب يختبيء بين السريس ضباعا مسلحة توقفه وتهمهم:

"إلى أين؟"

"إلى عزبتي"

وسمع الشابُ الرصاصات، و سمع صوت ارتطام جسد العرف بالأرض بجوار السنسلة.

ودخلت فصيلة من الضباع بيت الحاج عبد الغني البالغ من العمر ثمانين عاما.

كان يحدث نفسه: " مع رجل في مثل سني، ماذا يمكن أن يفعل أولاد الميتة هؤلاء؟"

قال:

"تفضلوا"
"ماذا تفعل هنا؟"
"هذا بيتي..تفضلوا اشربوا قهوة"
وتفضلوا، تربعوا أمامه في نصف دائرة، شربوا القهوة، وعيونهم تتبادل النظرات، وتتطلع إلى السقف بعقوده المتقاطعة، ثم وقفوا، ووجهوا بنادقهم اليه وهو ما زال متربعا على الأرض، انطلق الرصاص فجأة، عاصفة جعلته يرتد بعنف وظهره إلى الجدار متأوها بصوت مكتوم. تراخت أطرافه، سال دم كثيف على دمايته، وانحنى رأسه قليلا على صدره الممزق.
تركوه، ودخلوا بيت الشيخ يوسف، وهناك وجدوا شابا يعمل في مصفاة حيفا، ففتشوه، وخرجوا به إلى الزيتون، وهناك قتلوه ذبحا بالسكين.
محمد السليم الحردان يطل من النافذة ويطلق عليهم الرصاص، فينهال عليه الرصاص من كل الجهات. ويفرمن استطاع الفرار بمتاع قليل، ويتخذون طريقهم إلى الدالية، وهناك يلحقون بهم:
"يلا .. كل من يريد الرحيل إلى حي العرب يسجل اسمه وأغراضه، نحن سنوصلكم إلى جنين"
وجاؤا بالشاحنات، ودفعوهم إليها حفاة عراة مع أغراضهم القليلة. وعند مفرق المنصورة انحرفت الشاحنات وأخذت طريق حيفا. وهناك أمروا كل واحد أن ينزل بثيابه فقط. أخذوا النساء إلى اللجون، والرجال إلى سجن عتليث. لم يفرقوا بين من قاومهم ومن تآمر معهم، الجميع في السجن، كل ثلاثين منهم في غرفة واحدة طيلة ثمانية أشهر. بعد ذلك أخذوهم ورموهم عند الحدود.

* * *

حين قرأ متي شموئيلوف، إبن أحد المهاجرين إلى فلسطين من قرية منسية بالقرب من بولتافا، روايتي، تخيل حبكتها هكذا:
"مكعباتُ نردٍ نثرت فوق طاولة، ثم ضمّ بعضها إلى بعض من جديد لتؤلف أشكالا جديدة، ويؤدي ترتيب أشكالها الجديد إلى حكاية ذات أشكال متعاقبة، وتخلق هذه من جانبها سردا مختلفا ودلالات مختلفة أيضاً"
وتحت كل هذا لاحظ دما كثيفا يشبه حمما بركانية يؤلف حكايات.
وذهب زفي بارإيل الكاتب في صحيفة هاآرتس، الذي أجهل من أية غابة بولندية جاء وجثم على مكتب في صحيفة، إلى قلقه مباشرة، فوجه خطابه إلى قرائه، إلى من يثير غضبهم حق العودة الثابت في قرار الأمم المتحدة رقم 194، ومن يعتقدون أن التعويضات ستطرد الذكريات، ومن يظنون أن الفلسطينيين ليسوا شعبا واحدا، بل ثلاثة شعوب أحدها في اسرائيل والثاني في الضفة الغربية والثالث يحرس الذاكرة في الشتات، وكتب:
"هذه الرواية تحتكم على قراءتها مرات ومرات"
يوسف الغازي، وبعد أن أرسل لي هاتين المقالتين، طلب مني أن أكون حذرا إذا تحدثت مع هذين:
"هؤلاء ليسوا مثلي، وقد يستغلون ما تكتب أو تقول، فكن على حذر"
"أفهم هذا تماما، وأعرف على أية صخرة يقعي هذا البولتافي وذاك البولندي. إطمئن، ليس لنا أن نحذر أو نخشى أن نقول أنفسنا. سأتحدث دائما بالبساطة والوضوح الذين تحدثت بهما عن تنهدات آخر لاجيء بين صيافير الكرمل، عن صديقك الفحماوي وهويأخذك إلى حجارة بيتنا بين الظلال ويقول لك أنظر، ليس في الوادي سوى أحجاره"

وسألني بعض الحاضرين في مسرح سان جريفاس في جنيف هاتفياً :
"هل تؤيد الحوار مع الاسرائيليين؟"
لم أتبين وجه السائل بالطبع، ولا وجوه بقية الحاضرين، إلا أن الصمت الذي ساد بعد السؤال أوحى لي أن كثيرين ينتظرون جوابي في قاعة واسعة، فقلت:
"علينا أن نحدد أولا لفظة الإسرائيلي، فهي غامضة وملتبسة. فمن هو الإسرائيلي؟ هل هو شارون وموفاز، أم هو الغازي الجالس أمامكم وإيلان بابه؟ هؤلاء يمكنني أن أعيش معهم وليس محاورتهم فقط، أما شارون وموفاز فلا أعتقد أن حوارا يمكن أن ينشأ بيني وبينهم، كيف تحاور لصا سرق بيتك؟"
ونقلت المترجمة المغربية كلماتي إلى الفرنسية بصوتها الرقيق، وأحسستُ أن صوتي وهو يتردد بالعربية في فضاء القاعة أضفى على الجو صفاءً ونقاء غير معهودين في ذلك المكان البعيد.
وتساءلتُ بيني وبين نفسي:
"هل ترددت أصواتٌ عربية هناك بهذا الوضوح؟ هل دعت الآخر إلى مواجهة ذاكرتها؟"
كان الدم كثيفا..نعم، وأشبه بحمم بركانية..نعم، ولكن الحكاية لم تكن في يوم من الأيام لعبة أحجار نرد على طاولة. كانت ذاكرة الذاهبين والأحياء والقادمين من المستقبل. كانت معزوفة ذلك الذي لم يفارقه أرغوله طيلة ليلة كاملة في ذاكرة أمي، وذلك الذي يجلس الآن وراء بيانو في قرية أمريكية وتندلع من بين أصابعه تموجات نسائم أم الزينات، وذلك الذي احتفظ بعوده قريبا من قلبه دائما وهو يتنقل في طرقات معسكر الشعيبة في أعماق جنوب العراق، وذلك الذي يأخذ طريقه إلى جنين قصيرا غاضبا ليقود الشباب في وجه الهمج الصهاينة وهم يحتشدون بطائراتهم ودباباتهم وجرافاتهم حول مخيم اللاجئين. كل هؤلاء سيسألون حكايتي عن مصائرهم، وسيدخل كل واحد منهم فيها مفتشا عن طريق أو أجمة أو كومة أحجار يعرفها وتعرفه.

* * *

حين ظهرتْ الطائراتُ الإنجليزية في سماء أم الدرج، أدرك خالي كم كان مصيبا حين ألحّ على أبو درة أن يواصل الجميع طريقهم، وأن لايتوقفوا للمبيت، فأجابه أبو درة من وراء أنفه:
"لا..سنبيت هنا. في هذا الوعر لايستطيع الإنجليز ولا الأبالسة اكتشاف مكاننا"
كان هذا في منتصف الليلة الماضية، وبعد أن تعشوا في أم الزينات في بيت أخته، في الوادي البعيد عن البلد والشارع الآتي من حيفا، وتحركوا بخيولهم صعودا متلمسين طريقهم. أما الآن، وضوء الشمس يبدأ بالانتشار فوق الصيافير العالية، وتظهر معه خوذات الإنجليز، وتئز الطائرات باحثة عن صيدها، فالشيطان وحده يعرف كيف النجاة من هذا الطوق.
وابتسم أبو درة، هذا العتال العنيد من ميناء حيفا الذي لم يتوقف منذ أن ذهب إلى أحراش يعبد مع القسام عن تذكير مرافقيه بأنه توكل على الله، ولا عودة إلى تحميل السفن والقاطرات، ونظر إلى الرجال ينهضون ويتوزعون، ويلبد كل واحد منهم وراء صخرة. الأشجار كافية للتغطية، وسترمي الطائرات قذائفها عشوائيا، هذا أفضل، أما هؤلاء الجنود فهم تحتنا وسنصطادهم بسهولة.
جاء الانجليز بألف جندي وثلاث عشرة طائرة كما تقول الموسوعات، ولكنها لم تذكر كم تدحرج منهم في تلك المعركة، فالإنجليز يخفون عادة عدد قتلاهم، كما يخفون وجوه ضباطهم حين تتغضن وترتجف أصابعهم، ويعودون بهم إلى جزرهم البعيدة لينضموا إلى لاعبي الغولف العجائزفي النوادي

الارستقراطية. ولم تقل الموسوعات شيئا عن عشرات الفلاحين الذين تناثروا بين الصخورليواجهوا جنود الامبراطورية قبل سنوات قليلة من سقوط شمسها في البحر إلى غير رجعة.
حين حدثني خالي عن هذه المعركة، أزاح معلوماتي التي وضعتها أمامه، وابتسم مستعيدا ذلك النهارالطويل، ودبت الحيوية في صوته المتعب:
" كل هذا الضرب والتطويق، ولم يستشهد منا سوى سبعة عشر، لم يستطيعوا الصعود الينا، هذا وعر لاتسير فيه مصفحة ولا سيارة، فترجلوا وتقافزوا مثل الحراذين، كنا نراهم، ونسدد، ونسمع صراخهم ولعناتهم. تقول كانوا ألفا، ربما، لاأعرف، ما أعرفه أننا ضربنا طيلة النهار، وزعيق طائراتهم فوق رؤوس الشجر، وما أن غابت الشمس، وابتعدت الطائرات حتى واصلنا طريقنا صعودا في الجبل. بين دوي الأصوات والغباراخترقت كتفي رصاصات، قد تكون من الطائرات، أحسست أن كتفي يخلوا من العظام، ومع ذلك حملت جريحا من رجالنا لايحضرني اسمه الان على ظهري حتى أم الشوف"
وتكمل أمي الحكاية:
" وقال الإنجليز، إذهبوا واحملوا رجالكم، وانصرفوا. وجاؤا بهم مثل حزم الحطب فوق الجمال"

* * *

في هذا الوعر ذاته، تسلق أخي طريقه ليلا عائدا من مخيم جنين مع ثلاثة من أهالي أم الزينات. لم يرو أحد قصة هذه العودة كاملة، وتناثرت أحداثها على شفاه أناس مختلفين وفي أماكن مختلفة. حدثني رجل وصل إلينا متأخراً في معسكر الشعيبة، أنهم وقعوا في كمين، وفاجأهم الرصاص من حيث لايتوقعون بالقرب من دالية الكرمل. وما أن شاهد شاب من دروز الدالية المسلحين وجه أخيك وهو ملقى على الأرض بعد أن اخترقت رصاصة خاصرته، حتى إندفع اليه منتحبا:
"أسعد..أسعد..!"
كان يعرفه حق المعرفة، ليس بحق الجيرة والخبز والملح فقط، بل لأنه كان يعمل معه في محطة قطار حيفا، ولأن خاله أبو علي صديق أبيه الحميم. فوجيء الشاب بالوجه المتألم من أم الزينات، فاحتضنه. وتراجع رفاقه، ربما دهشة أمام المصادفة، أو خشية أن تنكشف وجوههم، فما زالت نضرة وطرية الشمس التي أظلتهم وبعضهم يمر ببعض في شعاب الكرمل، أو وهم ينحدرون إلى حيفا معا، أو وهم يسهرون على مشارف الدالية حين يكون هناك عرس. بقية من خجل كانت كافية لتنقذ حياة أخيك.
"كان الجرح في الخاصرة، ولكن الرصاصة استقرت هناك، ولم يستطع إخراجها الطبيب الذي جاؤا به إلى الدالية، أو لم يجد وقتا بالإحرى، لأن الشاب الدرزي رتب الأمر سرا، وأخفى هوية أخيك. كان يريد أن يجد له علاجا سريعا يوقف النزيف، ثم يعيده إلى حي العرب بأسرع ما يمكن"
وحدثتني عجوز من مخيم جنين أن هذا الجرح ظل يؤلمه، وكثيراً ما أطلتْ عليه وشاهدته يتلوى من البرد والألم في خيمته، فكانت تجيء له ببطانية وتغطيه:
"مسكين، لم يكن بجواره أحد، كان وحيدا"
وفي صغري شعرتُ بهذه الوحدة حين وصل أخي إلى معسكرنا برفقة سائق من الأردن، واحتضنه أبي وسار به بين جمع من الرجال، ثم حين ساربجواري باكيا بعد ذلك ببضعة أشهر وهو يشير إلى التابوت المحمول على الأكتاف ويقول لي:

"هذا أخوك..هذا أخوك"
اعتاد أخي الوقوف دائما عند الغروب متطلعا إلى الشمس الغاربة خارج مهاجع الجنود الخالية التي تحولت إلى مساكن للاجئين. هذه الذكرى الوحيدة الباقية تعمق الآن في روحي غور تلك الوحدة التي لم تبارحه، وهو يصعد بمنامته المخططة إلى السيارة الذاهبة به إلى مستشفى البصرة، ثم وهي تعود به وقد خاطوا شقا طويلا في صدره بخيوط غليظة، ميتا بلا سبب. ربما علينا أن لانتساءل عن سبب لموت اللاجيء أو حياته في عالم انتزع منه كل معنى.

*　　　*　　　*

هناك ساعةٌ فضية اللون تدورعقاربها الآن في جيب يوسف الغازي معلقة بسلسلة، أو قد يكون وضعها على طاولة أمامه لتذكره في كل لحظة، كما قلت له، بأن الزمن يتوالى، وعليه أن يحسب حسابه:
"نحن أصحاب البلاد لانحتاج إلى احتساب الزمن، فالزمن كله لنا، أما أنتم، فأنتم بحاجة إليه لتعدّوا الأيام الباقية لكم في فلسطين"
قلتُ هذا ممازحا وأنا أناوله الساعة قبل وقت قليل من مغادرتنا بيت لوك الريفي، مفكرا بأحراش يعبد والقسام وأبو درة وخالي حامل أحزمة الرصاص ورفيقه على ظهره:
"أنتم أبناء الدقائق، مثل الإنجليز. قتلوا القسام في العام 1935 بين الأشجار، وعلقوا أبو درة على مشنقة في القدس، ولكن هاهو القسام يعود بالآلاف. ألم يكن عبثا كل هذا الذي فعله الإنجليز؟ أليس عبثا ما تفعله ضباع الصهاينة وهي تتشبث بالساحل الفلسطيني؟ نحن لانحتاج إلى الساعة، خذها هدية، فالزمن لنا منذ أن بدأ دبيبه وحتى نهايته"
فكرّ الغازي قليلا، ثم انفجر ضاحكاً:
"سآخذها وأعدّ أيامي وأيامكَ أيضا"
"لا .. ليس لك سيطرة على زمني، زمني أبعد غورا من هذه الشواطيء الضحلة التي ترتادها أنت وأصحابك المهاجرون على شاطيء يافا"
"وتسميني مهاجرا، بعد كل هذا العدد من الأولاد والأحفاد!"
"ستظل مهاجرا، إلى أن أمنحك المواطنة الكاملة، وحتى يحين ذلك الوقت، حدق جيدا في الثواني والدقائق. كان من الأفضل أن أعطيك ساعة رملية، سقوط حبات الرمل أوقع أثرا ومعنى من غيمة اسمها الدقائق"
ندت عن كتفيه حركة لامبالاة، ومسد شعره الأبيض المتهدل على كتفيه، شعرَ رجل تخطى الستين من عمره خفيفا تلمس أطرافه وجها ممتلئا، وارتسمت تحت شاربه التركي الكثيف الأصفر ابتسامة خفيفة، وأدار وجهه نحو فرانسواز، وقال بضع كلمات بالفرنسية، فالتفتتْ إليّ مستطلعة وعلى شفتيها علامة استفهام. قلتُ بانجليزية متأنية:
"كنت أقول له أن الساعة الرملية أفضل هدية "
"لماذا؟"
"لأن البدائي يفهمها بلا تفكير، بينما تحتاج ساعة سويسرية إلى شيء من الرياضيات والجغرافية والتاريخ، هؤلاء خارج كل هذا، خارج رياضيات وجغرافية وتاريخ فلسطين"

ومرت لحظاتٌ أحسستُ أنها بدأت تتضارب في ذهن الغازي وهو يتابع كلماتي. كنا نقف عند البوابة نتهيأ للرحيل، ولوك غير مبال يروح ويجيء بين سيارته وباب البيت الخشبي مدمدما بعبارات ساخطة غير موجهة إلى أحد محدد. وعلق الغازي باستياء:
"لم أكن أتصور أنك بهذه الحدة وهذا التزمت، ياأخي نحن بحاجة إلى مرونة، إلى شيء من الواقعية لا إلى أكداس من التواريخ والمعلومات"
"ها أنا أمامك.."
قلت مواصلا حديثي بالإنجليزية:
".. لا أكداس كتب ولا تواريخ ولا مستندات. أنا حالة شريد يتذكر"
".. وهذا الحاسوب الذي اشتغل طيلة أيام؟ هذا الدماغ الذي تحمله؟ لم تترك شيئا إلا وجئت به"
"كل شيء جاء عفو الخاطر، أنا بسيط مثلما أن قضيتي بسيطة، أما هذه الواقعية التي تتحدث عنها، فلن تجلب لك سلاما ولا حماما، الواقعية هي أن نضع كل شيء على الطاولة، الماضي والحاضر والمستقبل، وأصر على كلمة الماضي. هل تخشى ماضيك الاسكندراني، بالتأكيد لا..دع هؤلاء القادمين من جيتوات اوروبا جانبا، ولاتخشَ شيئا، هذه المنطقة من العالم احتضنت كل بؤساء العالم، من الأرمن إلى الشيشان إلى الهنود، أتعرف أنك لو جئتني شريدا، لأعطيتك نصف بيتي؟ "
ضحك الغازي، وسارع إلى قلم يبرز من جيب قميصه:
"اكتب هذا، اكتبه، ووقع على هذا التعهد"
"سأكتبه، حين ترجعني إلى بيتي"
أعاد القلم إلى جيبه، وابتسمتْ فرانسواز، فقلتُ وأنا أضع يدي على كتف الغازي:
"اكتبي هذه الملحوظات الأخيرة، ربما ستكون أكثر أهمية مما قلنا حتى الآن، هذه الساعة الفضية ستكون خاتمة جيدة لحوار، سيأخذها الغازي معه، وما أن تبدأ بالعمل، حتى تعيده عقاربها إلى الزمن بعد أن وضعته دولته خارجه تماما"
لم يبد على فرانسواز أنها اقتنعت بملحوظتي الأخيرة، ربما لأنها لم ترافق ذاكرة أشجارنا منذ البداية. فهزت رأسها وقطبت حاجبيها، وتساءلت بلهجة صحافية كأنها تود تغيير مجرى الحديث:
" ماذا تقترح أن يكون عنوان الكتاب ؟ "
قلتُ بلا تردد :
"لاجيء فلسطيني ومهاجر اسرائيلي يعودان إلى زيارة ماضيهما، ألم تقولي إننا عدنا سوية إلى زيارة حياتنا الماضية؟ "
كان الغازي شاردا بأفكاره وعينيه بعيدا إلى رؤوس الأشجار، وما أن سمعني حتى التفت إلينا وتمتم من بين أسنانه:
"لا .. أنا لاأوافق .. بعد كل هذا العمر، ثم تقول أنني مهاجر!"
"طيب ياسيدي..لست مهاجرا، ألا تعرف أننا كلنا مهاجرون على سطح هذا الكوكب؟"
وهنا صاح لوك من وراء مقود سيارته:
"هيا أيها الرفاق، ولتسقط دولة الفلامش، ولتسقط كل الدول"
وما أن أدار محرك السيارة حتى لاحظ:
"انتما متفقان أحيانا ومختلفان في أحيان أخرى، أما مشكلتي مع الفلامش فلا حل لها"

حجر الفلاسفة

لسارة واصف أشياء خفية غير معلنة، أشياء مثل صور القديسين الفسيفسائية الملونة على الجدران بوجوههم المستطيلة الشاحبة منذ قرون، ومثل الأودية الجبلية النائية في أقاصي الصعيد بأديرتها الغامضة ونساكها الذين يتلامحون كما تتلامح الصور وتمحى على الصخور. كل شيء يتلامح، لايعلن عن نفسه في هذه الأيام المتواصلة، الأيام الباريسية الهادئة تحت ضوء قمري دائم.
في الضوء القمري تحدث الأشياءُ ولا تحدث، تجيء ولا تجيء، تبقى ماثلة في عالم حلمي يشبه ذلك الذي يعيش ممتدا في أذهان المومياءات إلى الأبد. أو هو لون الأبد ذاته. سارة كانت نوعا من هذه المومياءات، أو هي المومياء الحية التي تسكن في التجاويف سواء نقلت واختفت عن الأنظار في كهف، أوظهرت إلى العيان في متحف أو مكتبة أو مقهى باريسي.
حين التقتْ بأطفال الندى، وفكرت بحل مايشبه اللغز، لغز أن يولد الأطفال من ندى بين الصخورفي فجر نهار غائم تظلله الأشجار، واتخذت طريقها إلى وعر الحكاية، بدأ النور يلمس أشياءها الخفية، يتسلل إلى أماكن نائية في أعماق ريفها الطفولي، ويتوقف على مشارف قرية سكانها الآن حجارة، وتراتيلها حفيف أشجار دوم وجميز، والضوء الذي يغمرها يجيء من شمس غابت طويلا.
"روايتكَ تعيد كل إنسان إلى قريته!"
ترددتْ هذه العبارة على أكثر من لسان وبأكثر من لغة. تمتم بها فلسطيني وجزائري وفرنسي وبلجيكي، وسيتمتم بها أناس مجهولون آخرون يتناولون الرواية من على رف مكتبة أو يتصفحونها على شاشة حاسوب، أو يسمعون طرفا منها في قاعة مسرح. سارة أيضا كررت هذه العبارة بينها وبين نفسها وهي تقرأ ألفاظا وتعابير وسطوراً تحمل اليها مشاعر تائهة بلا ألفاظ تقودها.
"نحن لانشعر إلا بما نستطيع تسميته، وإن هتفت بنا هواتف مشاعر جديدة بالغة القوة، لن نعرف ماذا نفعل بها، ماذا نسميها. أحيانا نفضل أن نكبتها، ونفضل أحيانا أن نحيلها إلى شعور مألوف، فنطلق عليها تسمية خاطئة، ونجردها من دلالتها الفريدة"
لاتعرف أين قرأت هذه السطور، إلا أنها تتذكرها الآن كما لو أنها كتبت من أجل وصف حالتها مع عواطف تنتابها عصية على التسمية. أنا أعرف صاحبها، وأعرف أنه كاتب إسرائيلي يرثي محدودية المشاعر الإنسانية، ولكنه يتوقف بين بيوت عين حوض، ولايجد تسمية يمنحها لمشاعر أصحابها اللاجئين بين الصخور يتطلعون من ظلامهم إلى أضواء نوافذ وأبواب بيوتهم التي استولى عليها الغرباء منذ خمسين سنة، وحولوها، وهذه هي الفكاهة السوداء، إلى قرية فنانين يدبون في طرقاتها دبيب خلندات عمياء!.
ولاحظتْ سارة بينها وبين نفسها قبل أن تعود إلى مكتبها وبين يديها روايتي:
" أطفال الندى هؤلاء تهتف بهم مشاعر بالغة القوة وفريدة، ولكنهم يطلقون عليها التسميات بلا تردد كمن تدرب على تسمية ما لايمكن تسميته مثل أي فلاح بسيط من فلاحي بلادنا"
ولكن ماذا عن مشاعرها هي؟

عند هذه الخاطرة، إبتسمتْ، وتطلعت من وراء النافذة الزجاجية إلى متاهة الممرات المحيطة بها. رأت لأول مرة حوض أزهارلااسم له، وأحسّتْ بتموجات تشبه دبيبا في الدم لا ضفاف لها. وتساءلتْ.. ترى كم من السنوات مرت وهي ترقد في هذا الليل القمري الدائم؟

لابد أن بضعة قرون مرت منذ أن لُفت المومياءات بقطع الكتان البيضاء المهترئة الآن، ووضعت لفائف أوراق البردي تحت أقدامها، ثم أرسلت إلى هذا الغياب العميق. لابد أن صاحب هذه الرواية كان يعرفها، ويعرف قريتها النائية التي تحول أهلها إلى حجارة، وطوقها النحيبُ منذ الأزمان القديمة. لولا ذلك لكان من المحال أن تشعر بقطرات ندى الكرمل تتساقط على وجهها، وبهذه العاطفة المضطربة وهي تتخذ طريقها إلى وعر قريته المندثرة، وتنحدر إلى الوادي مأخوذة بهذه الترنيمة تتناهى إليها من بين الحطام، وتغمرها الظلال ذاتها التي غمرت وجه الفلاحات المشغولات بفرز شظايا الجرار والعظام.

من السهل أن تقال كلمة "ندى" بالفرنسية، ومن الأسهل أن تقال كلمة "أطفال" أيضا، ولكن هل نظل نحن ذاتنا حين ننتقل إلى لغة أخرى؟ وهل تظل سماؤنا ذاتها، وتظل الظلال ذاتها، وكل ما ما يضطرب في القلب ويصيب العيون بالغبش حين تصدر هذه الصور مثل نغمات آتية من قرار عميق؟

حين يلتقي إنسانٌ حساس بكتاب لايبدأ بقراءة سطور مكتوبة بقدر ما يبدأ بقراءة نفسه. يستعيد لوحات من ماضيه رُسمت بخطوط سريعة، ولمسات ناقصة، مثل مشهد تلال في الضباب لاملامح لها ولا أسماء. وما أن يقع القاريء على كلمة هنا أوهناك بين السطور حتى تبدأ ملامحه بالظهور، ويتعرف على أسماء مألوفة منسية.

هذه لغة عربية، أي أوتارٌ إذا رنّت كان لرنينها صدى في النفس، أصواتُ نواقيس في القرى البعيدة، تدرجاتُ أضواءٍ ودخانُ غروبٍ على منحدرات جبلية، وصمتُ عيون قديسين مفتوحة على اتساعها، ولفحةُ صوتِ مؤذنٍ ذات ظهيرة يتردد في جنباته هديل يمام هاجع في الأفاريز، وأخيراً مشهد أطفال يحملون الفوانيس ليلا في الطرقات المتربة. هنا أشياء تعلن عن نفسها، تخرج من الخفاء.

وتحدّق سونيا في ما يتراءى على أنه وعرٌ غريب تتلامح فيه أشياؤها المألوفة. تحدق، تنحدر أعمق فأعمق بين الأحراش. لم تعد تعرف هل استولى عليها عالم الرواية أم هي التي استولت عليه، أم أنهما كانا في الأصل عالما واحدا ولكنها ضلت طريقها إليه؟

*   *   *

في مكان آخر، بعيدا عن مكتب سونيا ولغتها الفرنسية التي بدأت تتلمس أسماءنا، قررتْ سوزان ناثان النزول عن السياج، والانتقال للعيش في قرية طمرة الفلسطينية على أطراف عكا. هنا ليلٌ قمري آخر، ولكن تجوبه أشباحٌ قادمة من ماض مختلف. من معازل السود في جنوب أفريقيا، من الغجرالذين يلمون بأطراف المدن مثل كائنات قادمة من أطلال مدن منسية.

لديها، بالإضافة إلى شعرها الأشقر القصير وجسدها النحيل، لغز آخرتسعى وراءه؛ لغز اللامرئيين، أو هؤلاء الذين لاتفسير لهم، ثقافتهم، مجتمعهم، والأكثر أهمية حكاياتهم. لغز غامض، هو نحن، تماما مثلما هي المشاعر التي لانجد لها تسمية فقط لأننا لم نتعلم تسميتها.

سوزان، شأنها شأن أي مهاجر يهودي إلى فلسطين، ولدت في قارة أخرى، وتحت سماوات أخرى، وجاءت مثلما تجيء جرةٌ اكتمل صنعها ووضعت في الفرن وأخرجت، ثم وضعت على رف أو مقعد أو في زاوية بيت:

"لم يخطر ببالي أن أذهب وانظر اليهم، هم غير موجودين فحسب، ومثل غالبية الصهاينة، لم أزعج نفسي بالهبوط والنظر إلى ماتحت السطح"

هكذا تحوّلنا إلى لامرئيين بالنسبة لهذه القادمة من بيتها في ويمبلدون جنوب لندن حتى قبل أن تطأ بقدميها أرضنا. أنا وأمي وأبي وأهلي وقرانا المدمرة لاوجود لنا في عقلية الجرار المكتملة، مع أن أكثر من مليون منا تتقاسم هذه الجرارالمغلقة معهم الأرض والسماء والشواطيء، وتشرق علينا الشمس ذاتها.

الفارقُ الوحيد بين هذه الجرة وبقية الجرارأن طينها عجن وتشكل وأدخل في الفرن في جنوب أفريقيا، أي في بلد على أطراف الغابات لم يكن يلتمع فيه إلا اللون الأبيض حين يهبط الظلام، ولم يكن يتحرك في طرقاته إلا الأبيض حين ينتشر النهار. جرار من نوع آخر، إلا أن الحجارة السوداء كانت تقرع سكونها آتية من مكان ما، من عمق الغابات ومن أكواخ معازل السود الذين لاتفسير لهم أيضاً. وكان لابد من معرفة من أين تتساقط هذه الحجارة.

"كنتُ في فندق دوربان حين قرأتُ في صحيفة قصة معركة بين اثنين من السود. أحدهما ظل ملقى على الأرض ونزف حتى الموت رغم مرورسيارة اسعاف بجواره؛ لم تستطع السيارة التوقف لإلتقاطه لأنها مخصصة لالتقاط البيض فقط. وبدا لي الأمر غبيا وسخيفا"

وسألها الصحفي جوناثان كوك المقيم في الناصرة والباحث عن القصص وهما يسيران معا:

"ألا يبدو الأمر هنا أكثر سخفا وغباءً؟ أن تقتلع مئات الالاف من الفلسطينيين من وطنهم ثم تقرر أن تنسى الأمر بكل بساطة؟"

"تعلمتُ أن أراهم إما بدائيين وإما خطرين، هكذا آمنتُ بكل ماقيل لي إيمانا أعمى، ومن كل قلبي، حتى قبل أن أهبط من الطائرة، ويخضعني موظفو الوكالة اليهودية للتجربة في غرفة أدنى من مستوى زنزانة سجن طيلة خمسة أشهر قرب تل أبيب. كل مهاجر يخضع للإختبار، ولا يقولون له حتى أن هنا أناسا آخرين على هذه الأرض غير جرار الله المختارة.."

قالت هذا بصوت رفيع هامس، ثم بدأت تضمحل أواخر الكلمات ما أن بدأ يرتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر. ووجد كوك صعوبة في التقاط كلماتها بوضوح. كانا يسيران متمهلين بجوار المسجد، ثم استعاد صوتها وضوحه ما أن ابتعدا:

"النزولُ عن السياج يعني أن لاتظل متفرجا، ويعني أيضا أن تتحول في نظر أصدقائك اليهود إلى مختل عقليا، وفي نظر الفلسطينيين إلى عابر أضاع طريقه ولم يعد يعرف أين هو. هذه شوارع أحتاج إلى السير فيها، وهؤلاء أناس أحتاج إلى الحديث إليهم، أود أن أشعر بالمكان. كان الأمر لغزا، ولكن ما أن بدأت حجارة أطفال الفلسطينيين تضرب جدران جرارنا، حتى شعرتُ ورأيتُ أنني لم أعرف الحكاية كلها. لابد من حكايات الفلسطينيين أيضا، لابد من إعطاء مشاعري الجديدة أسماء. هم لا أسماء لمشاعرهم وعواطفهم في انجليزيتي أو عبريتي، لا أسماء"

بالنسبة لجوناثان كوك الذي صعد إلى جبل الكرمل قبل وقت قصير وعاد بحكايات أهالي أم الزينات، كانت لغته الإنجليزية تزداد ثراء كلما تقدم أكثر، وكان قادراً على تسمية مشاعر الناس على الأقل، الناس البسطاء الذين فتحوا له قلوبهم وبيوتهم وقادوه إلى قراهم المدمرة ليرى أنهم ليسوا نبات فطر أو مجرد أشجار صبار للذكرى.

*   *   *

"كلما هبطتَ إلى الأعمق، اكتشفتَ نفسك. أما على السطح، فستظل بلا ملامح. الأعماق مرآتنا"
بهذا حدثتُ نفسي وأنا أسير بجوار سارة ذاهبين إلى حيث تشيرالحكاية، إلى بئر الناطف قبل أن ينشف ماؤه ويتأوه العجوز"خفا الله راح البير"، ثم إلى مغارة الطابون قبل أن يخرج منها الأطفال حائرين ومذهولين أمام مشهد العظام المتناثرة والجدران الصخرية المشروخة، فإلى تلك المغارة المشهورة في الأساطير على أنها مغارة سيدي المجاهد وقد غطى المنديلُ الأخضر وجهه.
لم تجرؤ سارةعلى التقدم اليه، أو محاولة نزع المنديل. حذرتها من أنها لن تنجح، كما لم ينجح كل الفلاحين الذين حاولوا انتزاعه:
"الأفضل أن يظل لغزاً في الحكاية وبين الصخور الجبلية. حين نعود، ربما سندرك الحكمة، حكمة أن لا أحد رأى وجهه"
توجستْ سارة ونظرت حولها:
" ولكننا كشفنا عن وجوه أجدادنا، وحللنا أربطة المومياءات، بل وعرضناها بعيونها المشدوهة في صالات المتحف، أخذنا كل هذا إلى النور، لماذا يظل مجاهدكم بلا وجه؟"
"لأنه مرآة في العمق، قد أرى فيه وجهي، وقد ترين فيه وجهك، الناس كلهم قد يرون فيه وجوههم، لهذا يجب أن يظل عصيا على التحديد. إنه مرآتنا"
وأخذتُ بيدها، وابتعدنا هابطين إلى منحدرات تظللها أشجار الصنوبر والخروب، وتظلل معها حجارة بيضاءَ خدّدها المطر، وحفرتْ فيها الشموسُ التي توالت شروخا سوداء. كل شيء يتحدث ويهمس بأسمائنا، وسارة تصغي. لم تعد تسألني، فبين هذه البقايا كانت تلمح أكثرمن طيف عابر، وتود أن تستوقف أطياف العابرين وتسألهم، إلا أن سطوراً من روايتي هي التي كانت تهتف بها.
تصيبها الدهشة كما تصيبني. وأدركُ بغموض كم هي مؤثرة هذه الممرات المتشابكة، وهذه النداءات الآتية من لامكان، هذا الحفيف الذي يتحول إلى خضرة، وهذا النرجس الذي يتحول إلى أنين ناي قادم من وراء التلال، وهذا النحيب الصادرعن موتانا الساهرين تحت السناسل وأشجار البطم وفي فجوات الصيافير العالية.
وتساءلتُ:
"أهذا هو الحجر الذي حدثونا عنه؟ الحجرالذي يحوّل كل ما يلمسه إلى ذهب؟"
وحدثتْ سارة نفسها:
"شيءٌ غريبٌ، كأنني كنتُ هنا، كأنني وأهلي عشنا بين هذه الأشجاروالكهوف، كأنني أخذتُ بيدي أطراف أوراق الشجرالندية وأدنيتها من شفاه الصغار، ماالذي تفعله بي هذه الحكاية؟ هل هي المرآة التي يتحدث عنها هذا الكاتب؟"

*   *   *

الساعة التي أخذها الغازي مبتهجا في البداية، ثم غاضبا في النهاية، ما زالت تتك في جيبه أو على طاولته هناك في رامات غان التي يذيل باسمها رسائله دائما. الغريب أنه هاتفني فرحا ليبشرني أنها تعمل، وتعمل بانتظام. لم أشك حين أعطيته إياها أنها ستعمل، فالساعات كلها تعمل في كل أنحاء العالم، ولكنها تشير دائما إلى أوقات مختلفة، ولو تسنى لجوّاب لجأ في شيخوخته إلى بيت بين المرتفعات، أن يجمع في غرفة واحدة ساعات موقوتة على توقيت بلدان مختلفة موزعة بين القارات، لسمع عجبا حين تتوالى دقّاتُ ساعات منتصف الليل.
وددتُ لو جعلتُ هذه الرواية تجمع ساعات كل الأمكنة، وتصدر واحدة بعد أخرى دقات منتصف الليل أو منتصف النهار. كم سيكون الأمر ممتعا !
"ولكن ما مغزى كل هذا ؟"
تساءلتْ سوزان وهي تجلس وحيدة على شرفة بيت في طمرة:
"ألن يكون الأمر زيادة في الارتباك والتشويش؟ نحن بحاجة إلى ساعة واحدة صالحة على الأقل تعمل في زمننا هذا"
كانت في ذهني قطاراتُ لندن المنطلقة تحت الأرض وجسرها الذي شاهدتُ كيف يتدفق فوقه الخارجون من مكاتبهم عند الظهيرة، تماما كما وصفهم إليوت؛ لاأصدق أن الموت أخذ كل هذا العدد، كان في ذهني عزيفُ نخيل البصرة الذي يتحرك على إيقاعه أناسٌ بلا ساعات، ونداءاتُ العائدين من حقولهم إلى أم الزينات مع الغروب، مع الساعة الوحيدة التي يعرفون، كان في ذهني الهندي الصامت أمام بوذا، ساعته الوحيدة، ورواد مسرح الإلياد العائدين إلى بيوتهم مع قصة جبينة التي تخطت إليهم الزمن، كانت في ذهني تلك المرتفعات الاسكوتلندية الغائمة بين سطور ماكنتوش وقد انتشر فوقها فلاحون مشردون يتأبطون قربا موسيقية في طريقهم إلى ساحل البحر.
كم سيكون الأمرممتعا لو اجتمع كل هذا، وبدأت هذه الفرقة الخفية عزفها تحت الشرفة، فتطلين عليها، أو يطل عليها ملايين البشر الذين يقفون على شرفات مماثلة، غارقين مثل تماثيل حجرية في حنايا الجدران والأعمدة والردهات المعتمة.
"ألم تشغلكِ هذه النقوش الملوّنة على صدور جداتنا؟ ألم تفكري بأن تمثال هذه المرأة الحجرية القادمة من الدامون وطفلها المتشبث بثوبها الطويل الملتصق على يمين الداخل إلى طمرة يمكن أن يكون ساعة الذين لاتفسير لهم؟"
"كلما فكرتُ بالنقوش أشعرُ كم أنني غريبة، كم أنني منفية عن هذه المرأة بملامحها الصلبة وعيون طفلها المرتعبة. حكاياتكم تجعلني أطفو على السطح، أنا لا أعماق لي"
" أنتِ من لاتفسير لها هنا. ربما جئتِ تبحثين في هذه الأرض عن ألغاز حيث لاألغاز. ألا ترين كم نحن واضحون ومفهومون؟"
في الشارع يمر العابرون، ومن شارع إلى شارع يدورون، وفي النهاية يتوقفون عند أطراف البلدة، ما بعد ذلك ليس سوى الهوة. يصلّون كثيرا، يحتشدون في أفنية البيوت، يسهرون، يرسمون، وينحتون تماثيل من طين وحجر، ولكن هذه الهوة ماثلة، غامضة كأنما امتص الأرض غول خرافي، وبدت طمرة ببيوتها وأناسها جزيرة طافية تتآكل أطرافها يوما بعد يوم، تطغى عليها الهوة من كل الجهات وتخنق أنفاسها. الضباع فوق كل تلة وحجر وبين المنعطفات وتحت الأشجار.
وتتنهد سوزان لافتة نظر جوناثان كوك:
"ماذا يكون التطهير العرقي إن لم يكن كل هذا؟"
وتدق الساعاتُ في ميادين العواصم، تشير إلى أوقات مختلفة، ولكن ساعة طمرة معزولة صامتة لاتشير عقاربها إلى زمن محدد. ربما الأفضل لو أن لها توقيتا محددا، لو أنها حددت لها وقتا تشير فيه إلى منتصف ليل أو نهار، بدل هذه المرأة الماثلة بوجهها القاسي وطفلها الذي يسحب فزعه على كل الساعات. ربما الأفضل لو تحركتْ في الزمن، ولم تتوقف عند تلك الظهيرة التي تسللت فيها

الضباع إلى قرانا واقتلعت كل ما يشير إلى الزمن. ولكن، لا..ليس هذا هو الأفضل، الزمنُ في فلسطين لايقاس بدقات الساعات حتى لو كانت كل ساعات العالم، بل بزيتونها وسناسلها الحجرية البيضاء وآبارها التي سممتها عصابات الهاغاناه، بهذه النقوش النسائية الملونة التي جذبت انتباه الإنجليز واثارت حنق اليهود الغرباء. بعد تحطيم كل الساعات، تظل هناك ساعة القلب ودقاتها، هناك بعيدا في الأعماق.

هنا يبدأ قلب سوزان بالخفقان على إيقاع وقت محدد في هذه اللحظة، ولكن هناك حيث تجتمع الأزمان كلها كان قلب الأفريقي روي كاسلز يخفق أيضا في اللحظة ذاتها، هناك في جوهانسبرغ التي ودعتها سوزان منذ زمن طويل، واضمحلت الأشباح البيضاء في ليلها البهيم، ليلها الذي يظل بالنسبة للمستعمرين البيض بلا تفسير حتى وإن أضاءته ملايين المشاعل.

يكتب الأفريقي روي:

"حين انهمكتُ في نضالنا التحرري، وعيتُ بتماثل قضيتنا مع قضية الفلسطينيين؛ الإستعمار التوسعي الاستيطاني ينتزع منك الأرض، ينتزع حقك في الوجود على أرض ميلادك. وحين قال مانديلا إن حريتنا ستظل منقوصة من دون حرية الفلسطينيين، عرفتُ أنه كان يتحدث إلينا جميعا، نحن الذي عانينا القهر الاستعماري والعنصري"

يكتب من قلب الأزمان كلها، وتخيلته في مكتبه مع كل الساعات الموقوتة على ساعات العواصم البيضاء والسوداء، يصغي إلى حفيف قادم من أنقاض قرانا:

"هزّني مصاب الفلسطينيين حتى الأعماق، وعصفتْ بي شهادة شاهد عيان يروي عن ذبح القرويين الفلسطينيين قبل شهر من إعلان قيام دولة إسرائيل. كان ذلك في دير ياسين. وتساءلتُ؛ إذا كانت مذبحة شارفيل، التي يفوق فظاعتها ما حدث في دير ياسين، دفعت بي إلى صفوف حزب المؤتمر الأفريقي، فهل يمكنني أن أكون لامباليا تجاه مصاب الفلسطينيين؟"

"هذه الساعة لكَ لتعدّ عليها أيامك الباقية، أو ما تبقى لك في فلسطين. نحن لانحتاج إلى حساب الزمن، لنا زمننا الذي سيظل بلا تفسير"

ويمدّ يوسف الغازي ساقيه أمامه، مستندا بظهره إلى مسند هزاز، ساهما يتأمل ساحل بحريافا الغامض، بينما تواصل ساعته الفضية اللون تكاتها واحدة بعد أخرى.

أشجار اللوز في جنين

تمتدّ جنينُ في عدة اتجاهات، وتعود الإتجاهاتُ لتلتقي في مخيمها، طبقة فوق طبقة، ومشهداً يجاور مشهداً؛ أشجار اللوز التي نصحو صباحا فنجد حباتها متناثرة حولنا، فتجمعها أمي، وتأتي صاحبة البستان وتأخذها من دون أن تنظر إلى أشباه البشر المتناثرين تحت أشجارها، الوعر الذي يسير بين صخوره وعتمته شتات قرانا المدمرة في الطريق إلى عارة وعرعرة، الدبابات والجرافات وهي تهدم وتسحق بيوت اللاجئين بينما تطلق الطائرات صواريخها، ويتخذ قناصة القتلة أماكنهم على رؤوس التلال ويطلقون الرصاص على كل من يقترب من جريح أو يطل من باب أو نافذة.
وبجواركل هذا تحتل يسرى السجينة في روايتها زاوية من زوايا بيت من بيوت المخيم يجاور الساحة، ويطل منه الزمن والأولاد والأحفاد على الكثير من الدبابات والكثيرمن الجنود، وعلى أبو جندل الأسمر القصير يسير معصوب العينين، مقيد اليدين، والجنود يضربونه بأعقاب البنادق ويصرخون وقد أصابهم السعار بلغات غير مفهومة.
هذه هي جنين الماضي والحاضر والمستقبل، ولكنها أيضا جنين التي تدق فيها ساعاتُ هذه الأزمنة سوية. فتعلن ساعة الأطفال تحت أشجار اللوز وقتَ أمي وأبي وإخوتي ونحن نحمل متاعنا القليل وتأخذنا الشاحنات الممعنة شرقا باتجاه بلد البلح والنخيل، وتعلن ساعة مسيرة أهالي إجزم وعين غزال وجبع وقتَ البكاء الذي انطبع في الروح منذ أن طاردتهم الطائرات واقتنصتهم الكمائن اليهودية في شعاب الجبل، وتعلن ساعة شباب المقاومة الوقتَ الذي تصدوا فيه للهمج الصهاينة وهم يقتحمون البيوت ويقتلون الرجال والأطفال في الغرف والشرفات وعلى امتداد طرقات مخيم جنين.
دقاتُ هذه الساعة الأخيرة يتردد صداها ويختلط بأصداء الساعات الأخرى؛ الواحدة بعد منتصف الليل، الخامسة فجرا، السادسة صباحا، الثانية عشر ظهرا، التاسعة مساء، دقات منتصف الليل، الليل دائما. ووسط كل هذا، تصلني هيلين والاسك قادمة عبر فضاء الانترنت، مستثارة بخبر أنني أعرف يسرى، أو أنني من الذين ينتمون إلى تلك النهارات البعيدة تحت شمس الكرمل.
أتساءل: من هي هذه التي تحاول منذ زمن معرفة المزيد عن يسرى، وعن الفلسطينيات اللواتي عملن مع دوروثي غرود في مغارات الكرمل؟ ويجيء الجواب، عبر الفضاء ذاته:
"..هي باحثة من أصقاع البلقان حيث مازالت الخيول تجرّ العربات، والشيوخ يتبادلون الأحاديث أمام أبواب بيوتهم، والنسور تحلق فوق رؤوس الأشجار وتبتعد في اتجاه الجبال، شقراء في الخمسينات من عمرها تتجول بين لاجيء البوسنة وصربيا وكرواتيا وكوسوفا، وتلم شتات ذاكرات مزقتها حروب القتل على الهوية واللون والجنس واللهجة وحرائق المدن وجثث النساء والرجال والأطفال في طرقات الغابات الرطبة ومفارق الطرق"
هيلين:
"حين سمعتُ عنها لأول مرة، ورأيت صورتها في محاضرة عن علم الآثار في فلسطين، هزني انفعال لاأجد تفسيرا له. أريد أن أعرف على وجه الخصوص ما حدث ليسرى وعائلتها في العام

1948، أفترض أنها كانت ما تزال حية آنذاك، أو في مابعد. قصة عملها مع غرود حدث فريد من نوعه في تاريخ علم الآثار والنساء الفلسطينيات، قصة تستحق أن تروى"

باميلا:

"قيل لي أنكم تشتتم، وزرعوا أشجار الصنوبر فوق حطام قراكم لإخفاء معالمها. ولكن فلسطين ستحيا أيضا، الناس يتغلبون على الإبادة، لقد رأيتُ كيف يستطيع الناس البقاء والتغلب على آلام لاتصدق، نحن البشر مدهشون، نعم مدهشون"

محمد:

"لم نتشتتْ كما قيل لكم، بل اقتلعنا من بيوتنا وحقولنا وظلال أشجارنا، ظلت الطائرات تحوس أياما وأياما، والقرويون ينتشرون ببنادقهم العتيقة حول إجزم وأم الزينات وجبع وعين غزال بعيدا عن أنظار العالم. الشجر لايحمي أحدا ولا الحجر، والناس تائهون لايعرف أحدهم أين يمضي، لم يبق أحد مع أحد. أين ذهبت يسرى وبقية أهلنا؟ تشتتوا في الوعر ليلا، بعضهم قتله رصاص الطائرات والكمائن اليهودية، وبعضهم وصل إلى جنين. ربما استقرت يسرى وروايتها هناك، وربما سنجد أولادا لها أو أحفادا، نحن الفلسطينيين نقاوم بطريقة فذة؛ نحن نمنح الحياة للأجيال جيلا بعد جيل. تمزقنا قذائف الطائرات والدبابات ولكننا نعود ونجمع شتاتنا، أليس مدهشا أننا ننتشر مع دقات كل الساعات منذ ستين عاما ولانموت؟"

هيلين:

" كنتُ في فلسطين، في القدس، في العام الماضي، وبدأت أسأل عن أناس من هذه القرى، وتتبعت أثر عائلة تقول إيفرات بن- زئيف أنها التقت بها وسمعت قصتها"

الغازي:

" هل ليسرى والد يدعى مسعود الحردان ؟ هل لها أخت اسمها خضرة من الوالد نفسه ولكن من أم ثانية؟ من المحتمل أنها ما تزال تعيش في الفريديس. سأذهب مع هيلين يوم الأحد القادم إلى فاطمة وأخيها، وآمل أن نعود بنتائج طيبة. سليم الفحماوي سمع من أمه أن نساء من أم الزينات أو إجزم كن يبنين بيوتهن بأيديهن لأنهن محافظات جدا..ماذا تظن؟"

هيلين:

"اتصلتُ بيوسف الغازي، وكان متعاونا جدا كما قلتَ لي وساعدني كثيرا، سنذهب ومعنا إيفرات أيضا لزيارة أقربائك بعد أيام قليلة"

الساعاتُ التي تدقّ معا لاتترك لأي مشهد أن يغيب، ولا لأي حديث أن ينقطع. الكلّ يتبادل الهمسَ أو البكاء أو النحيب أو الأخبارأو الأسئلة، من وصل من الوعر داميا وحدث عن ابنته التي حملها على ظهره ليلة بأكملها، وأصابتها رصاصة فبلل دمها لحيته فدفنها وجاء الينا شبحا لايعرف بأي صخرة يلتصق او بأي شجرة يحتمي، ومن ظلت الدبابات تمر على جسده في ساحة مخيم جنين حتى تقطع وألقوا به في الشاحنة وهي تغادربين مئات الجثث إلى حفرة بعيدة في وادي الأردن، ومن شهد شابا جريحا ينزف تحت وهج الشمس في عين حوض، ثم في ساحة المخيم، والجنود المسعورون يسحبونه ويعيدونه تحت الشمس الحارقة كلما زحف إلى الظل، ومن يهمس الآن من عمق التراب محدثا جاره عن الغبار والجدران التي انهارت عليه، ومن تنتحب وحيدة بين الحطام تائهة النظرات باحثة عن أطفالها، ومن يجلس وراء مكتبه ويصغي إلى قائد الجرافة، الدب الكردي موشيه نسيم، لايتحسر إلا على شيء واحد، وهو أنه لم يهدم المخيم كله على رؤوس ساكنيه:

"مات الكثير من الناس داخل البيوت التي هدمناها، أنا متأكد أن أناسا ماتوا داخل البيوت، ولكن كان من الصعب رؤيتهم وسط الغبار الكثيف وظلمة الليل، أنجزنا معظم عملنا في الليل. وحتى لو كان هناك من أحد ينهار عليه البيت، فهذا أمر لايهمني على الإطلاق. مع كل بيت ينهار كنت أبتهج، لأنني أعرف أنهم لايهتمون بموتهم، بل ببيوتهم. إذا هدمت بيتا، فأنت تدفن معه أربعين أو خمسين

شخصا من عدة أجيال. لو أعطيتُ ثلاثة أسابيع لفعلت المزيد من الأشياء الرائعة، أعني لو تركوني أدمر المخيم كله فسأفعل بلا رحمة. تسألني بماذا أشعر؟ أشعر أنني تركت لهم ملعب كرة قدم ليلعبوا فيه"

إيهاب إبراهيم:

"إحتلّ الإسرائيليون بيتا مجاورا لمستشفى جنين، واختبأوا بالقرب من البوابة، وما أن تخرج سيارة اسعاف لتحمل جريحا حتى ينهالوا عليها بالرصاص. احتجزونا طيلة اسبوعين، وبعد إلحاح ورجاء قال قائد الجنود: "يمكنكم إرسال ثلاث سيارات، ولكن عليكم التنسيق معنا". وحملنا ثلاث سيارات بفريق طبي وبعض المتطوعين، ولكن حين وصلنا إلى مدرسة الزاهرة سدّت علينا الطريق دبابة.

كان هناك جنود ودبابات. وتقدم أحدهم إلى السيارة التي أقودها:

"إنزلْ"

نزلتُ، فأمرني أن انزع ملابسي. قلتُ بعبريته :

"أنا ذاهب لإنقاذ جرحى"

"ممنوع"

كان هناك ألف إنسان في آخر الشارع، رجال وأطفال ونساء جوعى ومتعبون، كل الرجال عراة وعيونهم معصوبة، والأغلال في أيديهم، والجنود يجرونهم واحدا بعد الآخر بعيدا عن العيون وراء مصنع الطابوق. وذكرني المشهد بالفلسطينيين الذين دفعوا بالقوة خارج بيوتهم في العام 1948.

الناس ما أن أدركوا أنني سائق سيارة إسعاف، حتى بدا لهم الأمر كما لو أنني هبطت من السماء، فبدأوا ينتحبون ويتوسلون: "أرجوك..تعال هنا..هنا أناس ينزفون"

قلت للجندي:

"اسمع..هذا يتخطى حدود اللاإنسانية، أنا عامل طبي، لاتذلني بهذه الطريقة، فإما أن تقيدني وتسحبني وراء معمل الطابوق مع الآخرين أو تدعني أمضي"

وأخيرا قال:

"طيب .. إلبس وإمش"

وأدركتُ أنهم يحاولون إخراج النساء والأطفال من المخيم حتى يهدموه على رؤوس الرجال، كانوا يريدون قتلهم جميعا"

محمد :

"لاينقطع الحديث، وما كان له أن ينقطع في ليل اللاجئين الطويل. ربما كانت يسرى التي تبحثون عنها هي ذاتها التي تعيش في غرفة من غرف مخيم جنين، أو واحدة أخرى تحمل اسمها، ذاهلة عما حولها، تتجول في الطرقات، لاتخشى الجنود، ولا هدير الدبابات. يسرى أطلت من نافذتها، ضربها صاروخ من طائرة ومزقها، وتكومت بقاياها طيلة اسبوعين مجهولين في الزاوية، لاتعرف ما أصابها ولا يعرف أحد أية قصة ستبدأ بروايتها لجيرانها الموتى في أكياس سيارة الصليب الأحمرحين تستيقظ وتلمس أطرافها المفقودة.

اللاجئون وحيدون ومتوحدون مثل أبطال الحكايات، يدقون أبوابنا ونوافذنا عائدين من الوعر ومن تحت أنقاض البيوت ووادي الأردن ومن أكياس الموتى يبلل قصصهم ندى الليل، فينظرون الينا، يحدقون في المقاعد والأسرة ووجوه الصغار، يصغون بانتباه، ثم يغيبون في الليل واحدا بعد الآخر تاركين وسما من ضباب هنا أو هناك على زجاج النوافذ"

*   *   *

الدرجاتُ الحجرية العشرالصاعدة إلى بوابة آل ماضي يسندها من تحتها قوسُ قنطرة صغير، وما أن ينفتح الباب الحديدي حتى يواجهك المدخلُ بعد بضعة أمتار، بعقوده الحجرية العالية المتداخلة، والجدران المرتفعة على الجانبين. إذا تلمستَ حجارة البناء فستدرك أنها قطعت من صخر جبلي احتفظ بلونه الأبيض والبني الفاتح كأنه قطع بالأمس، وإذا نظرتَ حولك فستجد أزهار البوكنفيليا الحمراء متدلية من النوافذ كأنها أطلت قبل هنيهة من هذه الجدران التي تذكر بجدران القلاع.
ربما لهذا السبب، ولأسباب نفسية أخرى ذكرها ميرون بنفنستي حين رأى المشهد يتغير، أطلق عليها الصهاينة بعد أن احتلوا "إجزم" اسم "القلعة"، وظنوا أنها قلعة صليبية، واختبأوا في ظنهم هذا حتى اليوم، فقط حتى لايعترفوا بينهم وبين أنفسهم أن الفلسطينيين أصحاب هذه المضافة كانوا هنا، وأن حجّارا يدعى حسن الشيخ حسن هو من شذب أحجارها الجبلية ونقلها على ظهر الدابة إبنه البالغ من العمر تسع سنوات، مثلما فعل مع أحجار أول مدرسة بناها أهل إجزم في الثلاثينات.
مضافة آل ماضي حولوها إلى متحف، ونصبوا فوق مدرسة أطفال إجزم شمعدانا بسبع شعب، وحولوها إلى كنيس. وبدأوا بهدم ما تبقى من بيوت هذه القرية الجبلية، تاركين بعض ما تبقى من جدران المسجد لتعرش فوقها خضرة الأشجار، وتتدلى من نوافذها حشائش برية، وتقف أمامها شجرة صبار قصيرة ملتوية وقاسية. وحول حارات القرية التي ينمو عليها العشب وتقف أشجار زيتون عتيقة، انتشرت مثل نبات الفطر بيوت مستعمرة جاؤا اليها بيهود من تشيكوسلوفاكيا، وأطلقوا عليها اسم " كيرم ماهارال".
تجنبوا اسم "إجزم" لم يحرفوه، لم يعودوا إليه، مثلما فعلوا في أماكن أخرى، ولكنهم طمسوه وانتشروا بين كروم الفلسطينيين مثلما ينتشر الجراد وتلجأ الضباع في الأماكن المهجورة حتى اليوم.
إذا صعدتَ إلى الحافة الشرقية حيث كانت الحارة الفوقا، وواصلت طريقكَ، وخلفت وراءكَ هذه المساحة الخالية من الأرض إلا من القلعة والمسجد وبضعة أحجار متناثرة وزيتونات التوت جذوعها وتضخمت، فستجد نفسك في الوعر نفسه الذي احتشدت في النساء مع أطفالهن تحت الأشجارفي صيف العام 1948. وستجد نفسك مرغما على السير مثلما ساروا على أقدامهم في الظلام وتوزعوا، بعضهم إلى دالية الكرمل وعسفيا شمالا وبعضهم إلى وادي عارة، وتفاجئهم الكمائن اليهودية في وادي الملح وقنير، ولاأحد يعرف في هذا الشتات من سقط ومن ظل حيا يواصل طريقه إلى جنين.
مضافة آل ماضي كانت صامتة وخالية، مثل كل بيوت إجزم بعد أن انسحب المقاومون تحت قصف الطائرات من الجو والمدافع من البحر، وكذلك المنحدرات الجبلية التي سيقسم الحاج صالح أمام محققي الأمم المتحدة في جنين أنك يمكن أن تجد فيها الكثير من القتلى، ولكنها راقبت آنذاك جنود عصابة الهاغاناه وهم ينهبون بيوت القرويين فيخرجون بالإمتعة والأثاث والأواني، ثم جراد المستعمرات الذي هرع بعرباته وشاحناته لينهب ما يستطيع نهبه.
وأسمع يزن الحسن:
" قولي لي ياجدتي، أين نحن؟ "
فتقول العجوز بثقة وهي تنظر في عينيّ مباشرة:
"أنتَ في إجزم"

*　　　*　　　*

الشخصية الإنسانية خزانة بعشرات الأبواب المغلقة، ولكل باب مفتاح مختلف عن المفتاح الآخر. وأنا أحمل منذ أربعين سنة رزمة مفاتيح، أحاول فتح هذا الباب وذاك دون جدوى، إلى أن جاء ذلك اليوم، يوم اقتربتُ من أمي وبدأت أسأل عن أسماء وصورطافية في ذاكرتي، فتقول، ذلك هو الطريق إلى الروحة، وتلك هي عمتك يسرى، وذلك الجمر الأحمرالذي يتتابع عاليا في سواد الليل هو الرصاص فوقنا ونحن في طريقنا إلى الدالية، أما هذا العجوز الذي يرتجف تحت بطانية وتهتز يداه وهم يناولونه صحن الحساء الذي يتصاعد منه البخار، فهو جدك.

لم تكن أمي تروي، بل كانت تفتح الأبواب بابا بعد باب، وتوطد بي إحساسا بالمكان. كم افتقدتُ إلى مكان بين الأمكنة، إلى واقع بين شتات الوقائع، وكم كنت أود معرفة كيفية البكاء؛ أن أجد طريقي، أن اتنبأ، أن أتأمل. أن أدافع وأهاجم وأتحرك، أن يكون وجهي مرئيا كما يقول مثل من أمثال شعب الماؤري الغائم في أقصى الأرض، لينقل إليّ إحساس أن الناس يشاهدونني وينظرون.

لم تكن أمي تروي، بل كانت تضع في يدي مفاتيحي الملائمة، فأتحسس الرزمة مجددا. وذات أمسية:

سامي طالب الموسى:

"كان ذلك جدكَ بالفعل، ولكنك ربما لاتعرف أنه عاد من الحرب في البوسنة بعد أن بلغ الستين من عمره ثم تزوج سبع نساء، إحداهن جليلة القوية التي حاولت إمساك بقرة هائجة من قرونها فنطحتها وشقت بطنها، وبعدها أصيبت البقرة بالكآبة وهدأت، وإحداهن رسمية التي كانت تجمع الصغار في الليالي المعتمة وتقودهم إلى الوعر بحكاياتها وبين يديها قنديل وتمائم وفي صوتها بحّة حزينة لم تفارقها حتى بعد أن أعادت جبينة البريئة إلى أهلها!"

محمد:

"وتلك كانت يسرى المتزوجة في إجزم كما أظن، تلك التي علّمتها الانجليزية كيف تتحدث بلغتها، ولكنها كانت تتوقف حين تغني يسرى وهي تنقب في مغارة الطابون والغبار يتصاعد من حولها وتتكدس حولها بقايا الآنية والعظام وعقود الأحجار الملونة، وتصغي بانتباه إلى تهويدات آتية من أزمنة أخرى على شفتي هذه الفلاحة التي لاتعرف ربما أنها تتهامس بالفعل مع سكان الكهف الغامضين، وأنهم يبادلونها الهمس"

رفيق الفحماوي:

"يسرى، الشيخ حمزة، طالب الموسى..نعم أذكر تماما اجتماع عجائزنا تحت الشجرة بعد أن أرسل لهم مختار قبانية الأكراد يطلب أن يرفعوا الرايات البيضاء. بعضهم قال نسلم ونسلم، ولكن الشباب قالوا لا. وجاؤا من كل الجهات، صعدت المصفحاتُ من عند البير من الجنوب، وتسلل مشاتهم من جهة وادي الملح في الشرق، ومن الجنوب أطلوا من وراء السناسل كما قلت في روايتك. وبعد ثلاث ليال يعلم الله كيف مرّت كانوا على البيادر، وأول شاب قتلوه كان وحيد أبويه صالح إبن الشيخ حمزة. أتعرف ان خالك طالب الموسى ظل آخر المقاتلين، ولم يهبط عن سطح الدار إلا بعد أن انتشروا في أم الزينات مثل الدبابير؟ لم يذهب ناحية خبيزة شرقا مع الضائعين في الوعر، بل اتجه شمالا، ومن هناك هبط إلى حيفا"

محمد:

"تتذكر أمي أن الشيخ حمزة لم يكن قارئا فقط، بل كان طبيبا أيضا، وذا حس جمالي أيضا. وكثيرا ما كان يمر ببيتنا، فيشير إلى الصغير الذي تحمله أمي قائلا "من أين لكم غزال جرماشة هذا؟" وجرماشة هذه أعرف أنها موجودة في مكان واحد فقط هو حديث أمي..كما أشياء كثيرة لاوجود لها

إلا في رواياتها. ويعجبني أن يكون هذا الصغير الذي هو أنا غزالا في يوم ما. ولكن لماذا جرماشة هذه؟ يبدو أنها مكان تكثر فيه الغزلان، ربما كان في الروحة التي هي المرعى والمنتزه كما يبدو، وربما كان مكانا في الجزيرة العربية، ولكن جرماشة حين تنطقها أمي تشير إلى أنها مكان مألوف"

خالد منصور :

"أصر أبي حين دخلتُ أم الزينات لأول مرة بصحبته في العام 1971 على أن أطأ معظم قطع الأراضي التي كان يحفظ أسماءها كما يحفظ اسماءنا نحن أبناؤه. أخذني إلى جورة البير والبطيحي والحج حسن وخلة الجاج وبكّار والمصرارة ووادي الملح وجرماشة وخلة التينة ووعرة الزيتون والمَلّ .. نعم وطأتُ بقدمي أرض جرماشة، جرماشة التي حدثتكَ عنها أمكَ، هي لم تكن في رواياتها فقط، بل على الأرض أيضا، مثل البيوت التي تعرّف عليها أبي وهو يسير بين حطامها، تقوده إليها أشجار الزيتون والتين والرمان والصبر الباقية حتى اليوم"

متي شموئيلوف :

"في روايتكَ موضوع مثير، ذلك التأكيد الذي ذكره أحد الشيوخ "سوف ينتصر العرب إذا وضعوا يدهم في يد الروس، وعندئذ سوف تنقلب الدنيا على رؤوس اليهود" ويبدو هذا التأكيد شبيها بذلك التأكيد الذي ورد في رواية ماكبث ولم يتحقق"

محمد :

"يبدو أنك لاتريد أن تعرف أن لهذا الشيخ اسم، هو الشيخ حمزة في رواية أطفال الندى، لم يكن بطلا في مسرحية شكسبيرية، ولاشأن له بنبوءات ساحرات ماكبث. الشيخ حمزة كان قارئا اخترق ببصيرته غيوم الزمن. هل تدرك، أنتَ القادم إلى بلادنا من مكان ما في أعماق اوكرانيا أو جورجيا، أن الشيخ حمزة تحدث تحت ظلال شجرة خروب عن المسكوف وليس السوفييت؟ وها هم الموسكوف يعودون بعد غيبة أكثر من ستين عاماً؟"

فرانسواز:

"شكرا محمد، كان هذا اليوم رائعا بالنسبة لي وللوك. اليوم ذهبنا إلى أم الزينات، حلمي منذ زمن طويل، فإذا بالواقع يتفوق على الحلم. دعني أقل أن قريتكَ، حتى وإن لم تعد قائمة، مكان مدهش. بالأمس كما قالت هيام ابنة فاطمة كانت إبنة عمك وبناتها وأولادها هنا في ذكرى النكبة، وها نحن نصل اليوم من صفورية حيث شاركنا في مسيرة مؤثرة للعودة مع الاف الفلسطينيين غالبيتهم شبان صغار يطلبون حقهم بالعودة. وهناك زرنا أيضا قرى مدمرة واستمعنا إلى قصص أناس كثيرين. اليوم أسعدني أن ننفرد بقريتك في هواء الجبل الصامت والصافي، وتقودنا هيام إلى موقع المدرسة والمقبرة القديمةعلى رأس تلة. أنا ولوك وحدنا تجولنا في الوادي طويلا تحت أشجار الزيتون العتيقة، مأخوذين بالمشهد، بزهور أشجار التين الصفراء، بزهور أخرى أجهل أسماءها. وفكرّنا برواياتك التي جعلتْ هذا المكان مألوفا لنا حتى قبل أن نأتي، إنها معجزة الفن والأدب. التجربة مميزة ورائعة كما ترى، ولولاكَ ما قمنا بها. شكرا على إهدائك لنا هذا اليوم الرائع"

*   *   *

تذكرني السماء الزرقاء فوق أحراش يعبد بالياقوت الأزرق، ولاتضيف إليها الغيومُ البيضاءُ سوى المزيد من العمق والندى، حتى ليخيل إليك أنها بحرٌ يتموج هكذا منذ أيام الخليقة الأولى فوق غابة من الزيتون والسرو وأرض تلتمع زهورها الصفراء على امتداد النظر. وأفكر الآن بمن أهداني هذا المشهد وجعله مألوفا. بعشرات الناس الذين انتشروا هنا عند سفح جبل البلاط، بالذين تحدثوا في شوارع نابلس وجنين وعلى الطرقات، بالحشود التي تجمعت في الطريق إلى بلد الشيخ تحمل جثمان الشيخ عز الدين القسام بلحيته البيضاء وعمامته وقفطانه المضرج بالدماء.
أكرم زعيتر:
" في أواخر العام 1935، علمنا أن الشيخ غادر حيفا، ولم يعد أحد يعرف أين مكانه، فتبادل الناس شتى الأقاويل عن سبب إختفائه. وأساء بعضهم الظن، فقال أنه أحس أن الناس لم يعودوا يطيقونه، وبعضهم بدأ يرى في تحذيره من الإنجليز كابوسا مزعجا، فانسحب واختفى"
بشير الشيخ حسن:
"هو، سهّل الله عليه، ظل يجمع دراهم منذ مدة لشراء أسلحة، زاعما أنه يجمعها بحجة إجراء إصلاحات في المسجد، ولم ير الناس إصلاحات ولا شاهدوا أسلحة، فذهب بهم الظن كل مذهب غريب"
أكرم زعيتر:
"معاذ الله أن يذهب بك الظن كل مذهب. أنا أعرف صديقي المؤمن القسام مثلما تعرفه أنت، حرام أن تلقى عليه التهم من كل باب وشرفة"
بشير الشيخ حسن:
" وأنا أقدره، ولكن ياأخي، لماذا هذا الإختفاء إذن؟"
دارهذا الحديث مساء بين الشاب زعيتر وبشير المشرف على بناء بيت أخيه في حي من أحياء نابلس، أحدهما مازال مشهد أكياس الإسمنت المحشوة بالبنادق والرشاشات القادمة من بلجيكا على رصيف ميناء يافا قبل أن تنقل إلى تل أبيب يضطرب في ذهنه، والآخر يشعر أن هذا الغليان الفلسطيني الذي أطلق شرارته مرأى الأسلحة ربما سيذهب بحجارة البناء التي يراقبها تعلو حجرا فوق حجر، ومعها كل ما تعلمه عن فنون البناء. وهو الشعور نفسه الذي اجتاح زعماء أحزاب العائلات الفلسطينية الخمسة آنذاك حين علموا أن مدن وقرى فلسطين لم تعد تصغي لتوسلاتهم وثقتهم بفخامة المندوب السامي البريطاني، وبصق في وجوههم الكاتب سامي السراج، ونصحهم أن يتنحوا عن العمل السياسي، ويشرعوا بتأسيس معامل الشمنتو والمكانس والجوخ.
وقطع عليهما حديث الظنون عامل بناء هرع اليهما:
"قبضت الحكومة على عبد القادر اليوسف في جنين، وجاءت به إلى نابلس"
وهنا انتبه أكرم زعيتر إلى هذا الإسم الذي يعرفه جيدا، فأمسك بسماعة الهاتف يسأل، فقالت شرطة نابلس أنه غير موجود عندهم، فاستدار إلى بلدية جنين، لم يكن فيها سوى حارس رد عليه بمفاجأة أذهلته:
"حدثتْ معركة مع عصبة عربية، قتل أفراد منها وقتل إنجليز، وجاؤا بجثث القتلى إلى المدينة. الدنيا قائمة قاعدة، ولا أعرف أكثر من هذا"
وقطع الاتصال فورا.
أكرم زعيتر:
"اتصلتُ بالمراسل الصحفي ماجد القطب، وقلت له، اسرع إلى جنين، اسرع. وعاد ماجد بعد ثلاث ساعات يلهث ويصيح، أخبار خطيرة جدا، استشهد الشيخ القسام وأربعة من إخوانه"

*　　　　*　　　　*

تحت هذا الياقوت الأزرق نفسه وغيومه البيضاء، والذي سيزداد ألفة، قرر الشاب يوسف أحمد ريحان، والذي ستمنحه سنوات صباه في مخيم الرشيدية في لبنان اسم قائد أشبال الآر. بي. جي، ويضيف إليه مخيم جنين في مابعد لقب أبو جندل، أن يتخذ طريقه إلى المخيم في أوائل أبريل من عام 2002. هذه هي المرة الثانية التي تحاصر فيها دبابات قطعان الضباع الصهيونية المخيم، وينتشرقناصتها فوق التلال. لم يحدثني أحد عن طريقه الذي اتخذه، ولكن الخروج من يعبد في تلك الأيام لابد أنه كان تحت السماء الصاحية نفسها التي شاهدها القسام ورفقته وهم يتوزعون عند سفح الجبل بين الأشجار والصخور، وهم يطلقون رصاص بنادقهم القليلة على قطعان الإنجليز وشرطتهم الفلسطينية المزينة بشارات ملكتهم المحاطة بالطيوب والبخور الهندي في قصرها اللندني.
لابد أن أبو جندل مرّ بهذه السفوح نفسها، ومرتْ به أحلام هذه العصبة النادرة، تسع بنادق ورشاش وبندقية صيد، في مواجهة جيوش امبراطورية جرارة مازالت الشمس لاتغيب عن رؤوس حرابها وهي تزحف في أدغال الهند وبورما وأفريقيا ويستلقي ضباطها على شاطيء بحيرة الحبانية القريبة في العراق، وساحل قناة السويس الأكثر قربا.
ولكن الحديث الذي سيجعلني أعرفه، الحديث الذي سيجعل ملامحه مألوفة كألفة صديق طفولة أو وجه نشعر أننا التقينا به ذات يوم، هو ما حدثتني به أم علي في بيتها المطل على ساحة المخيم، الساحة التي شهدت، بعد اسبوعين من المعارك، أبوجندل جريحا، ينهال عليه ضباع الصهاينة بأعقاب البنادق.
أم علي الخمسينية، اللاجئة من أم الزينات، ذات البشرة الجميلة وثوبها الفلسطيني الذي لايغادرها، لم تترك المخيم لحظة واحدة وهو يتحول إلى حطام تحت قذائف الطائرات، وأجساد قتلى وجرحى في الطرقات تدوس عليها الدبابات، وتصطخب فيه أصوات الجرافات، جرافات شركة كاتربلرالأمريكية المصفحة خصيصا لإبادة المدن الفلسطينية.
أم علي الخمسينية لم تغادرها قصصها أيضا، تماما كما لم تغادر القصص أمي الراوية حتى بعد أربعين عاما. نحن نعيد الألفة إلى أشيائنا حين نروي، بيننا وبين أنفسنا، وبيننا وبين الأشجار والصخور والينابيع التي لاتنسى، وبيننا وبين غبار البيوت المتهاوية وصرخات ونحيب أطفالنا.
أوتارٌ تغني وأوتار تبكي، والزمن يمر صامتا ساعة بعد ساعة:
"واصلوا القصف من الجو والبر طيلة خمسة أيام وهم يحشدون قواتهم، والمقاومة تمنعهم من الدخول. كان السلاح بسيطا، إلا أن الله والملائكة حاربت مع المقاومة. ومن بيتي في الساحة شاهدتُ الجنود الأسرائيليين يتمكنون أخيرا من شق طريق لهم في المخيم. ارتعبنا، خفنا على أنفسنا وعلى الشباب، فخلال الهجوم كنت مع قلة من النساء نتجرأ ونخرج ونحمل الطعام للمقاومين، وكنت أرى أجسادا في الشوارع عديدة. وأخيرا وصلوا إلى بيتنا. كانوا متوحشين، يضربون ويركلون ويرهبون أي شخص يصادفون، وجمعونا في غرفة واحدة من غرف البيت، ثم أمرونا أن نخرج من البيت:
"إلى أين أمضي بأطفالي؟ يمكنكم أن تهدموا البيت على رؤوسنا إذا أردتم، لن نذهب إلى أي مكان، يكفي أنكم أجبرتمونا على ترك بيوتنا في العام 1948، والآن تطلبون أن نترك حتى مخيم اللاجئين"
هجم عليّ ضبع منهم، لطمني مزمجرا:
".. حيوان"
في تلك الليلة نمنا في البيت، وفي اليوم التالي، حوالي العاشرة صباحا، وطفلتي تلعب بدمية لها، بدا لنا أن المقاومة في الخارج كانت ضارية، ودخلت علينا الضباع، وطلبت منا أن نصعد إلى الطابق

العلوي. رفضتُ الصعود، لأنني أدركت أنهم يريدون استخدامنا دروعا بشرية لهم، فأمسك أحدهم بطفلتي وضغط رقبتها تحت ذراعه وصوب بندقيته إلى رأسها:
"سأقتلها إذا لم تصعدوا جميعا"
حاولتُ انتزاع طفلتي من بين مخالبه، إلا أنه ضربني على رأسي بعقب البندقية. ولم يكن أمامي من خيار، فصعدنا. بعد ذلك أخذت أطفالي وغادرت البيت، ودخلت بيتا يبعد قليلا عن الساحة، وهناك وجدت أناسا كثيرين يحتمون. هناك تركت أطفالي، وخرجت لإحاول تهريب طعام إلى الشباب، فكلهم أولادي، وهم يبذلون دمهم لحمايتنا. ماذا أقول؟ حولوا بيتنا إلى مركز عسكري، وظلوا فيه لمدة خمسة أيام، وحين انسحبوا منه نسفوه. كنت قريبة جدا هناك من المكان الذي أعدموا فيه جمال الصباغ، الشاب المقاتل، أطلقوا عليه الرصاص وهو جريح، لفوه ببطانية من بيتنا، ورموه في الشارع، وظل جسده ملقى هناك طيلة ثلاثة أيام، إلى أن أقبلت دبابة وداست عليه.
بعد عدة أيام ونحن في ذلك البيت، وددتُ أن أعرف ماذا يجري في الساحة، صعدتُ إلى أعلى مكان لأنظر، فشاهدتُ كل شيء مدمراً، كل البيوت سويت بالأرض، لم يبق حجر على حجر. كانت هناك دبابات وجنود كثيرون. ورأيت مجموعة منهم وأمامها شاب يسير رافعا يديه، كان يرفع يديه في الهواء، ودققت النظر لأعرف من هو، فأدركت أنه أبو جندل. وتجمدتُ في مكاني لأعرف ماذا سيفعلون به. أوقفوه، وبدأوا بضربه بأعقاب البنادق، ثم قيدوا يديه وبدأوا يصرخون بأصوات وحشية، لم أسمع سوى صراخهم، ولم أفهم ماذا يقولون، ثم أجبروه على الركوع فوق كومة أحجار وأطلقوا الرصاص على رأسه من الإمام ومن الخلف. عدت راكضة إلى البيت انتحب، وهناك رأيت المزيد من الناس، وكلهم مقيد اليدين، صرختُ "أعدموا أبوجندل"، صاح بعضهم "لانصدق"، قلت "هي الحقيقة" .
بعد ثلاثة أيام، أخذتُ ابنتي وجارة لنا، وخرجنا نتفقد أبو جندل، وهناك في المكان نفسه رأيناه راكعا بالطريقة نفسها التي كان عليها حين أعدموه، على ركبتيه، فظننتُ أنه ربما كان جريحا، ويمكننا إنقاذه. كان الدم يغطي وجهه. كان ميتا.
لم يسمح الجنود لرجال الإسعاف بنقل الجثث من الشوارع والبيوت إلا بعد ثلاثة أيام. بعض هذه الجثث كان مشوها بوحشية بالغة. وطلب مني عمال الإسعاف أن أساعدهم في جمع الجثث، وأن أدلهم على مكان جثة أبو جندل. كان هؤلاء من الشباب الذي رعيتهم طيلة عشرين عاما. وبدأوا يكشفون لي عن الجثث لأتعرف على أبو جندل، فقلت: "كان يرتدي بنطلونا خاكيا ومعطفا من الجلد". وحين فتحوا أحد الأكياس تعرفتُ على الجثة فقلت "هذا هو". يبدو أن الجنود المسعورين عادوا اليه بعد إعدامه وأحرقوا وجهه، رحمه الله، ورحم كل الشباب الذين ماتوا من أجلنا"
تصلبت ملامح وجهها الجميل، لم تنظر إليّ، ولا إلى من يحيطون بها، بل نظرت بعيداً، إلى أبعد مدى يمكن أن يصله نظرها، ربما وصولا إلى تلك السماء الزرقاء نفسها التي لاتغادرها الزرقة، ولا الغيوم البيضاء فوق أحراش يعبد:
".. فقدنا كل شيء، إلا أننا غير آسفين، كنا دائما وسنبقى فخورين، سنواصل المقاومة"

*   *   *

الجنودُ يفتشون جيوب القسام بعد ان أصابه رصاص الإنجليز المنهمر من كل الجهات، فيجدون في جيبه مصحفا وأربعة عشر جنيها. هناك في أسفل الوادي قتلوا أيضا الشيخ يوسف الذيباوي، ومحمد أبو القاسم، والمصري سيد سعيد عطية، وجرحوا نمر السعدي، وأسروا حسن البابر والشيخ أحمد جابر وعربي البدوي والشيخ محمد يوسف، بينما تمكن يوسف أبو درة مع قلة آخرين من كسر طوق الجنود والإختفاء عن الأنظار. ونقل الجنود جثث القسام ورفاقه إلى جنين، ونقلوا الأسرى إلى سجن نابلس.

لماذا أتذكر هذه الأسماء؟ لماذا أشعر أن من الضروري أن يحضر المكان بتفاصيله؟ لأن هذه الحكاية التي اختزنها فقراء الفلاحين والعمال، جيران القسام في حيفا، هي التي ستكون أوتار الغناء والبكاء التي لم يرددها آنذاك إلا هؤلاء المطرودين من أراضيهم بعد أن بدأت تلتهمها مستعمرات اليهود، وسيظلون يرددونها في الأيام الآتية. أما أصحاب مصانع الشمنتو والمكانس والجوخ، فلم تدق نوافذهم هذه الأصوات ولا حاول كتبتهم وشعراؤهم التقاط ملامح أهلها الإنسانية، أهلنا المعزولين مع مصاحفهم وأسماء شهدائهم في قراهم. هل يتذكر أحد خطبة من خطب القسام في مسجد الإستقلال؟ هل حاول أحد الذهاب إلى مخيم غارق بالأوحال والرياح ويسأل الناس عن حكاياتهم؟ لاأحد يحتفظ بخطب وقصص الفقراء في أدراجه الذهبية، لا أحد يتخذ طريقه إلى الوعر الذي لايفارق ذاكرة أي لاجيء، لا أحد يريد أن يعرف أن ظلال الزيتون والخروب هي التي تجعل حكايات أمهاتنا حكايات فلسطين.

نمرالسعدي جريحا:

".. خرجنا من حيفا منذ شهر تقريبا، بعد أن اتفقنا على نصرة الدين والوطن وقتل الإنجليز واليهود لأنهم يحتلون وطننا، وفي سهل بيسان كنا مسلحين بالبنادق والقليل من الرصاص، وكله اشتريناه من ما وفرناه من مصارف معاشنا اليومي"

أكرم زعيتر مع أوراقه:

"كان زعماء الأحزاب يتجنبون الصدام مع المحتلين البريطانيين، ويسعون لاسترضائهم، الوحيد الذي خرج على هذا كان القسام، فأدرك بوضوح وجلاء أن الإستعمار البريطاني هو العدو الرئيس الذي تجب مقاومته"

أحمد الشقيري المحامي يذهب لرؤية السجناء :

"فوجئتُ بأنهم اعترفوا بحملهم السلاح واشتبكوا مع الإنجليز، وأسقط بيدي، فسألتهم، ماذا تريدوننا أن نفعل في المحكمة وماذا نقول ؟ فقالوا، قل إننا مقاتلون في سبيل الله والوطن"

يروي القرويون ويغنون في وقت واحد معا، وفي الرواية تجتمع أصوات كل جنسهم البشري، شعراء بامتياز، ليسوا قارعي طبول ولا حاملي دفوف، او منشدي إيقاعات حزينة. إنهم أصحاب أقدم أشكال الملاحم البطولية التي تقص قصة شيخ يخرج من حي الفقراء في حيفا برفقة عدد قليل من الأصحاب ليواجه جيش إمبراطورية لم تغب الشمس بعد عن أسنة حرابها، وهو يعلم أنه لن يهزم هذا الجيش، وأنه سيسقط قتيلا بين الأحراش، وقصة شباب سيولدون في مقبل الأيام بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة، وينتشرون في الأحراش ذاتها وفي المخيمات حاملين الإسم ذاته، وأسماء اصحابه، وهم يعرفون أنهم سيسقطون قتلى بين الأشجار وتحت حطام البيوت أيضا.

هل اجنمعتْ في ملحمة القسام البسيطة، بحكايتها والغناء الذي رافقها، ملايين الأصوات الممكنة والكامنة؟ في هذه الملحمة لم تنفصل الرواية عن الأغنية، والمفاجيء، والذي كان يمكن أن يصعق ضباط الإنجليز الذي أرسلوا جنودهم إلى أحراش يعبد لو ظلوا أحياء، أن هذه الملحمة ذاتها لم ينفصل فيها الماضي عن الحاضر وما ستأتي به الأيام.

الزمن، الزمن الذي تتوزعه كلُّ الساعات، يتلاحم هنا في ساعة كونية، لايغدو بعدها لليل سيطرة ولا للموت سيطرة حين ينطلق أبناء وأحفاد القرويين تحت هذه السماء الزرقاء ذاتها بين الوديان وشعاب الجبل.

المؤلف:

شاعر وروائي وناقد ومترجم فلسطيني من مواليد قرية ام الزينات، جبل الكرمل، فلسطين، 1944 لجأ صغيرا مع عائلته إلى العراق، وهناك أتم مراحله الدراسية في جامعة بغداد في العام 1967. بدأ حياته العملية في الصحافة، وعاش في فترات متقطعة في عدة بلدان اوروبية قبل أن يستقر في دولة الكويت.

*** أعماله الشعرية :**

1- الغناء في أقبية عميقة، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث، بغداد، 1974
2- حاولت رسمك في جسد البحر، مطابع الطليعة ،الكويت، 1976
3- لساحلك الآن تأتي الطيور، دار ابن رشد، بيروت، 1980
4- مملكة الأمثال، دار العودة، بيروت، 1986
5- الأعمال الشعرية، الجزء الأول، مرايا، القاهرة، 2009

***أعماله الروائية:**

1- أطفال الندى، رياض الريس للنشر، لندن، 1990
2- نص اللاجئ، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، 1999
3 – حدائق العاشق، دار العصور الجديدة، القاهرة، 2001
4- أطفال الندى (باللغة الفرنسية)، دار نشر آلبن ميشيل، باريس، 2002
5- أطفال الندى (باللغة اليونانية)،دار الكساندرية، أثينا، 2003
6-أطفال الندى (باللغة البرتغالية)، دار كامبو دي ليتراس، لشبونة، 2005
7- أطفال الندى (باللغة العبرية)، دار بارديس، حيفا، 2005
8- شجرة المسرات: سيرة ابن فضلان السرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004
9- أصوات الصمت، دار مسعى& الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت،2009

*** أبحاثه النقدية:**

1- مقالة في اللغة الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، بيروت، 1980
2- الفن التشكيلي الفلسطيني، دار الحوار، دمشق، 1985
3- بحثا عن الحداثة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986

*** ترجماته:**

1- بعد السقوط (مسرحية)،آرثر ملر، سلسلة المسرح العالمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير، 1998

2- واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق:دراسة في جماليات قصيدة الهايكو اليابانية مع شواهد مختارة ،كينيث ياسودا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير، 1999
3- ست وصايا للألفية القادمة، ايتالو كالفينو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ،ديسمبر، 1999

*** سيرته الذاتية:**

1- أبعد من الجدران:لاجيء فلسطيني وإسرائيلي يعودان إلى زيارة ماضيهما (بالفرنسية)، محمد الأسعد ويوسف الغازي، تحرير فرانسواز جيرمين، دار أكت سود وسندباد، باريس، 2005

*** دراساته في الآثار:**

1- مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ، دار مسعى& الدار العربية للعلوم- ناشرون، بيروت، 2009